الدعـــــاء


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة - ١٤-

الدعاء

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

الأستاذ سعيد علي

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

إسم الكتاب : الدعـــــــاء

إسم المؤلـــف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : سعيد علي

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-16-6

الطبعة الأولى : ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م

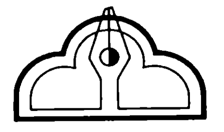
الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

النـاشـــــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم

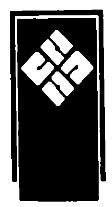
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+

ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com

E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+

ص.ب: 19395-6516 طهران

www.shariati.com

وتستمر دار الأمير...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة المترجم

تحدث الدكتور علي شريعتي بهذا الحديث في قاعة (حسينية الإرشاد) بطهران، والحسينية هي المسجد أو الجامع الذي يزاول شعائر الإمام الحسين بن علي عليه السلام، في عام ١٩٧٠. وقد سلخت في ترجمته ستة أيام من شباط عام ١٩٧٣. وأنت تستطيع أن تقول أن هذه الترجمة قد نقلت الكلم الفارسي إلى الكلم العربي. مثلما تستطيع أن تقول أنها قد أدت المعنى فما أبهت للفظ. وذلك أنني قد سكبت المعنى في قوالب عربية يرتضيها الذوق العربي. فإذا ترجمت هذه الترجمة إلى الفارسية جاءت بالكلم الفارسي عينه حيناً وبالمعاني نفسها أبداً.

سعيد علي

فلسفة الدعاء

مقدمة:

كنت راغباً عن الكلام. ولقد رغبت عنه لأمرين اثنين. فأما الأول فهو أن متدينينا ـ إلاّ من ندر منهم ـ وأن هؤلاء الشبان المثقفين الذين يدعون نيرين، وأعني بهؤلاءِ وهؤلاءِ من يتوسل في الأغلب بالدعاء ومن يحمل عليه، سيّان في ما يرون الدعاء عقّاراً مخدّراً. فهو عندهم ضعف يسعى إلى القوة، وهروب من الواجب، وبطالة تبحث عن مهرب، وكسل ينأى عن الجد، وصدوف عن مواجهة الحياة، فإنما الدعاء لون من التعويض من هذه الحاجة ومن هذا الضعف. فنحن في الأعم[١] نحسب أننا إذ نركن إلى الدعاء نستغني عن التفكير، والعمل والكفاح، واحتمال الخطوب والمشقات، وما علينا من واجبات في حياة الفرد والجماعة. وبالعبارة الواضحة

(١) لا يقال على الأعم. بل: في الأعم. (المترجم).

فالدعاء حافز الضعف والكسل إلى أن نطلب من الله ما يكون بالعمل، والسعي، والعناء. وهذا اللون من الرأي في الدعاء عسّر عليّ الكلام على الدعاءِ، فأنا في حاجة إلى وقت وسيع يتيح لي الكلام عن نشأة هذا الرأي في عصور سبقت الإسلام وفي مرابع غير إسلامية، فكان له أن يجد سبيلاً إلى عقول المسلمين في يومنا هذا. وأنا في حاجة إلى ذلك الوقت الوسيع لأسوق القول في هذا الوهن، والفشل، واليأس الذي احتول[١] التاريخ الإسلامي فقدّر للمسلمين ما هم فيه، فرضوا بما هم فيه. فكان عوام الناس، وقد يئسوا من بلوغ الهدف، وعجزوا عن تمكين العقيدة وضعفوا حيال الأشياء قد صاروا واعين وغير واعين إلى هذا اللون من تفسير الدعاء والإيمان به، ليظفروا بما لم يتحه لهم ضعفهم وهزيمتهم إزاء ما عليهم من واجبات. فالدعاء هو عوض من الهزيمة. وبدلاً من أن نعمل ونعاني، ونصبر ونؤمن، ونفكر، ونقاوم، ونحتمل ليكون لنا ما نريد، نتوسل إلى ما نريد بهذا الدعاءِ.

لو كان لي الوقت الكثير لأسهبت في القول؛ ان الدّعاء هو عكس ذلك. ليس للدّعاء أن يحوّل الضعف قوة. فحسب، ولكنه يزيد القوة قوة ويمنح الخير بقاء وديمومة في بناء الحياة

---

(١) احتول: احتوش عليه وأحاط به. (المترجم).

الفردية والاجتماعية كيما تكون الحياة عامرة معمورة. وأنا أعني أن لا مكان للدعاء حيث العمل وحيث الواجب.

إنما للدعاء الإسلامي وجود يأتي بعد الواجب، وبعد العناءِ والعمل والكفاح والصبر. والذين خلّفوا لنا في التاريخ الإسلامي متون الدعاء الحقة هم نموذج هذا المثال، وعلامة هذا الأمر. لقد كان هؤلاءِ في يقظة موصولة من أجل مناهضة العدو، وبلوغ السعادة، والقوة، والاستقلال، والحرية، ومن أجل القضاء على كل ما يُهدِّد الإنسان. لقد كانوا أبداً مجهزين مسلحين مسؤولين يخوضون المعارك الرهيبة، وكانوا مع هذا كله يدعون، أي أنهم كانوا يمارسون الدّعاء. لم يكونوا منزوين، أو مترهبين، أو لائذين بالجبل. لم يكونوا هاربين من المجتمع، ومن مساهمة الناس في أتراحهم وأفراحهم إلى دير أو صومعة ليمارسوا الدّعاء، والدّعاء وحده. كان عليٌّ يدعو، كيف كان يدعو؟ كان النبيٌّ يدعو، كيف كان دعاؤه؟ كان يدعو الله من بعد أن يُعدّ للحرب عدّتها من المادة والروح، فيحرّض الناس، ويجمّع القوى، ويعرض الصفوف، ويمعن النظر في الخطة والهدف فينازل العدو ويثبت له. ولم يكن دعاؤه بعد هذا التّحديق في أسباب الحرب المنطقية، والعلمية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية: اللهمّ إن خنّا، أو عجزنا، أو من جبروت السيف فررنا، أو للعدو

استسلمنا أو من اللياقة[١] بالنصر خلونا؛ فجُد علينا بأن ننتصر على عدونا، فأنت القادر على شلّه، ومحوه.

لقد كان عليٌّ ينازل العدو فلا يغرب عن باله شيء من عدّة الحرب وعتادها في ما تحويه من مناهج عسكريّة، وروحيّة، وكان بعد ذلك يقول: «تزول الجبال ولا تزول. عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أنّ النّصر من عند الله سبحانه[٢]».

فإذا فرغ من هذا كله دعا. ودعاؤه كان مختصراً في كلمات: «اللهم نجّنا إن انتصرنا من الغرور والأثرة والظلم والاستبداد. وإن نحن انكسرنا فقِنا الذُلَّ والعبودة».

كان هذا هو لسان الدّعاء. وكان الدّاعي هو الألسنة كلّها جميعاً. فالذين كانت عليهم الواجبات الاجتماعية في حياة الفرد، والجماعة، ومصير الآخرين، والقيادة السياسية كان لهم في ما يبغون من نجاح وفلاح في ما عليهم من واجبات مثل

---

(١) لاق به ليقاً ولياقة ولياقاً وليقاناً: لاذبه ولصق. يقال: هذا أمر لا يليق بك ولا يليقك أي لا يعلق. وفلان لا يليق ببلد أي لا يثبت فيه. ولاق به الثوب: ناسبه. (المترجم).

(٢) خاطب بها ابنه محمد بن الحنفية. (المترجم).

هذا الدّعاء. أجل، لم يكن دعاؤهم عقاراً مخدراً يقتل الشهامة والرجولة، والحسّ والوعي. لم يكن كما نظن.

وأمّا الأمر الثاني الذي رغّبني عن الكلام فهو أنني قبل أن أعتزم السفر اهتديت بإيران بقدر[١] ما إلى الفيلسوف والعالم الفرنسي الكبير الكسيس كارل، فشاقني أن أعرفه. فما إن بلغت أوروبا حتى رحت أبحث عن كتابه «الدعاء» La prière الذي يعد في طليعة آثاره، حتى كان أن عثرت عليه. والكسيس كارل هذا هو الذي نال جائزتين اثنتين من جوائز نوبل. ولم ينلهما في فلسفة، أو أدب، أو تاريخ أو في هذه العلوم التي يسمونها إنسانية، وإنما نالهما في العلم المحض. فالأولى[٢] لأنه أول من أبدع ربط العروق بعضها ببعض، ورتق ما يقتضيه ربطها. والثانية لأنه احتفظ في مختبره بقلب دجاجة منزوع من جسمها خمسة وثلاثين عاماً كان هذا القلب[٣] في خلالها يتسع ويمتد، فيضطر إلى تصغيره، حتى كان أن تعذّر على المختبر أن يحتفظ به. لقد وفق الكسيس لأن[٤] يبقي هذا العضو في هذه السنين حياً وهو منزوع من الجسم. فاستحق

(١) أي بمقدار. أي إلى حدٍ ما. (المترجم).
(٢) أي الجائزة الأولى. (المترجم)
(٣) لا بدّ لـ: خلال وأثناء من في تسبقهما. (المترجم).
(٤) يقال: وفق للشيء لا إليه. (المترجم).

بذلك جائزة نوبل. فالكسيس هو فيزيائي، وهو جراح. وليس كاهناً حداه الدين أو فيلسوفاً حدته تأملاته على الدعاء.

هو طبيب عرف أنماطاً كثيرة من الناس كان منها الكاهن، والسياسي، والمحامي، والعامل، والفلاح، والكاسب فعرف تأثير الدعاء في هذه الأنماط المتباينة عرقاً وعملاً. عرفه في أبدانهم أولاً، ثم استقرت معرفته في أرواحهم. وبعد سنين من الدرس والبحث، وقد كان فيها عالماً بالأحياء، وفيزيائياً ورئيساً لمؤسسة روكفلر. وضع صفوة بحثه في كتيّب سمّاه «الدّعاء». ثم في كتيّب آخر سمّاه «تأملاتي في سبيل زيارة لورد».

ولرأيه في الدّعاء أهمية كبيرة. فقد سبق مني القول أن الفلاسفة، والمفكرين، والكتاب المتدينين الذين تناولوا الدّعاء بالبحث هم كثيرون. إلاّ أن عالماً بالأحياء، والأنسجة، والخلايا يدرس الدعاء في الأمراض، والفيزياء، والعلاج بما لديه من خبرة وتجربة لهو عالم جدير بالاحترام. ويعظم احترامنا إياه[1] عندما نرى العالم يقيّمه على ما يستحقه من تبجيل. لقد وجدته في كتابه الذي تُرجِمَ منذ بضع سنين إلى الفارسية يبلغ في الدعاء آيات ساحرة مثلما يبلغ حقائق تدهشنا

(١) أفصح من قولنا: له. فالفعل متعد بنفسه. (المترجم).

نحن الذين نؤمن بالدعاء إيمان دين. فهو يقول مثلاً: «متى ضعف الدعاء في قوم وأهملت سننه كانت العلامة على انحطاط القوم وعجزهم. فالمجتمع متى انصرف عن التعبّد والدعاء أعدّ في نفسه مناخاً[١] لجراثيم الانحطاط، والاضمحلال، والضعف والعجز. لقد كانت روما عظيمة، عريقة في العظمة، بيد أن عزوف أهلها عن العبادة قد جرها إلى الذلة والضعف».

وتجد في بيانه حيناً مقولات جميلة جداً، وعميقة جداً، فكأنها الشعر النابض الرقيق، مثلما تجد فيه مقولات فلسفية معقدة غاية التعقيد. فهو يقول: «الدعاء أمانة تصحب من يدعو الله، فتبصر في سكناته وحركاته، ونظراته، بريقاً من نور الدعاء والتعبد. وحيثما يكن تكن تلك الأمانة معه».

ولقد أشار إحصاء الجنايات إلى أن المجرمين، هم في الأغلب الأعم، قوم لا يملكون من الدعاء شيئاً، أو يملكون منه شيئاً يسيراً ضئيلاً، أو إن حظهم منه من الجهلة والغفلة بمكان. في حين أن من لهم من الدعاء حظ وفير في حصن من الجناية، وإن كانوا من تلك الطبقة الجانية مالاً ومنزلة. فإذا ما

(١) المناخ والجمع مناخات: محل الإقامة، يقال: هذا مناخ سوء. (المترجم).

تلوّثوا يوماً كان تلوثهم زلة أو هفوة ولم يكن حرفة[١].

وتذيع مؤسسة لورد، كما يقول الكسيس كارل نفسه في كتابه «الدّعاء»، إحصاء في كل عام يذكر الذين شفاهم الدعاء، فاعترف لهم الأطباء بالعافية. وهم كثرة اجترح الدعاء العجيبة فبدّل سقمهم صحة. بيد أن كارل يقرّ بأنّ هؤلاء قد تضاءلوا في السنين الثلاثين الأخيرة. ثم يذكر العلة فيقول: «لقد غدا الزائرون سيّاحاً مزمعين عجلين عابرين. أجل، لقد قلّ الذين كانوا يأتون معجبين عاشقين متيمين آملين. وما هؤلاءِ الآتون إلاّ متنزهون متفرجون مزمعون يبغون استجماماً، فلا يحظون بشيء من فعل الدعاء. وإنه لكارل نفسه القائل في جانب آخر من كتابه في آلية تأثير الدعاء: «لا بد للدعاء من القوّة والاستمرار والخلوص. مثلما لا ندحة له من التدفق المغير». وهذا «التدفق المغير» جميل جداً؛ فما أكثره في الأدعية الإسلامية ونصوصها، وما أكثر ما تجد في تلك النصوص مثل هذه العبارة: «لتكن إرادتك إرادة طفل يغير على أمه ملحاً ملحفاً لا ينثني». ومثل هذا قال كارل. لقد قال لا بد للدعاء من القوة والشدة. فليس هو ورداً يلوكه اللسان وقد شغل عنه الجنان. فلعمري احتيال هو

(١) الحرفة والجمع حرف: اسم من الاحتراف، الصناعة، طريقة الكسب. (المترجم).

ذلك على الله. أوليسوا محنالين مخاتلين هم أولئك الذين يشاركون في مجلس الوعظ، والسيرة، والنواح في آن؛ فهم يريدون أن يكسبوا ثواب النواح وهم المنصرفون عن الموعظة إلى الدعاء، أو إلى تلاوة القرآن. هم يريدون أن يكون لهم ثوابان: ثواب القرآن، وثواب الدعاء. وأشطر منهم أولئك الذين يطمحون إلى أن يثوبوا ثلاثاً. أوليست آذانهم تصغي للمنبر، وعيونهم تحدق في القرآن، وشفاههم تردد الأذكار. أجهل بهم أن بعض هذا يأتي على بعض. أفلا يعلمون؟

لتتضافر قواك جميعاً ولترد بعد ذلك، وتلك هي القوة وتلك هي الشدة. ولئن استشهدت بمثل هذه الأقوال، وهي معروفة لا يجهلها أحد، فلأن لسان كارل إذ ينطق بها يضفي عليها قيمة: «الذين إذا أصبحوا على الدعاء فإنما يقضون شطر نهارهم كالضواري. عبثاً يفعلون فلن يقعوا في داخلهم على أثر له».

دعاؤهم مشوه. فالشفاه اللاغطة أبداً لن تشدّ القلب والروح إلى الله؛ فلغطهم عمل آلي حيواني لا غير.

إن دعاء الصباح يأتي عليه صخب النهار. فمتى كان الدعاء، ومتى اتصل القلب بدعائه بالله لزم أن يجد الداعي أثر

دعائه في حالاته كلها، وفي علاقاته بأهله وبالناس، كيما تتّقد فيه جذوة الدعاء وتتسع. فلا يبصر في روحه، وكيانه إلاّ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[١].

«وقد برهن الدعاء على أن للانسان ما يريد إذا طرق باباً انفتح له»، لا بد للدعاء من التدفق المغير. كان عيسى يمر ببعض الطريق وكان ثمة أعمى يقتعد زاوية. حتى إذا أحس ذلك الأعمى بأن عيسى يمر به، أمسك بأذياله طالباً منه بغضب، وعنف أن يعود النور لعينيه. فما فك أذياله حتى قال له عيسى: شفاك إيمانك.

ولئن كان الدعاء إرادة، فهو من وجهة أخرى أعمق من هذا الكلام. وها نحن أولاء نقترب من الدعاء الإسلامي.

المحبة: ليس الدعاء وسيلة إلى تلبية الحاجة فحسب، بل هو المحبة تتجلى. فما لا يُدرك بالمنطق والعلم يُدرك بالمحبة ـ بمحبة المحب للمحبوب ـ ومتى خلا القلب إلاّ من

---

(١) سورة الماعون.

المحبة، كانت المحبة صافية خالصة صادقة. لذلك «كان الله رمزاً بديعاً للحياة والوجود، وما هما إلاّ معجزة كانت منه. فكما أنه يغضي عمن لا يفهم إلا الفهم يتجلى لمن لا يعرف إلا المحبة».

أرأيتم هذه العبارة: «كانت منه»، إنها جميلة جداً. وفي فلسفتنا وتصوفنا مثلها. ولكن قيمتها في أنها صادرة من[١] رجل شغله المختبر والفيزياء والأعضاء. كم هو رائع أن يتمخض المختبر عن هذا التعبير العميق.

والذين يرون السبيل إلى المعرفة ينحصر في الفكر، والعقل، والمنطق فلا يفسرون الحياة والوجود والروح إلاّ كما يفسرون قوانين الفيزياء والكيمياء هم قوم يشق عليهم أن يدركوا وجود الله. غير أن الذين فاضت قلوبهم بالمحبة والإيثار والتضحية يدركون الله في سهل ويسر. كيف؟ في اليسر الذي نشم به أريج الزهر نملك أن نحس بوجود الله، وباحتواء كل مكان إياه.

«وانتهى القداس في الكنيسة فانصرف الناس جميعاً، وخلت المقاعد جميعاً إلاّمقعداً واحداً في آخر الكنيسة كان

---

(١) صدر منه لا عنه. (المترجم).

يجلس عليها رجل لا هو بالطبيب، ولا بالفيلسوف، ولا بالحكيم؛ إن هو إلاّ قروي! فما إن رآه الكاهن حتى أتاه سائلاً إياه: ما عساك أن تفعل في هذا المكان؟ فكان جوابه: «إني أراه، وهو يراني». فكما أن الله يمسك نفسه عن الأفكار الفلسفية العميقة فكذلك يهبها للمحبة الصادقة، والنيات الطيبة. إن الدعاء هو تجلي الحب والمحبة؛ فهو سبيل إلى المعرفة؛ وهو سبيل إلى الإيمان». وما يعنيه كارل يتلخص في أن الدعاء أو الابتهال هو تجلي المحبة، وتجلي إرادة الروح في الإنسان. ما هي المحبة؟ ما هي الحاجة أو الإرادة؟ ها أنذا أستغني بالكلام عليها عن البحث المستفيض.

ليس الإنسان بمتعه ولذاته. بل بجوعه، وحاجته وشوقه إلى الأشياء التي يحس بها. إن تكامل الإنسان يساوي تكامل حاجاته ونقائصه. فالإنسان إنسان على قدر ما تكون حاجاته كاملة، ورفيعة، ومنزهة؛ الإنسان الصغير حاجاته صغيرة. والإنسان الكبير حاجاته كبيرة. ومن هنا نفهم هذه الحقيقة الكبيرة: الأغنى أحوج.

ولم يكن فضل عليّ على سواه في غناه. بل في حاجاته الأرفع والأعظم التي تخص الناس، وفي حاجاته الشديدة، وعطشه الشديد في الوجود. ولم يكن لغيره قط مثل حاجاته وعطشه.

ويصدق هذا في العلم أيضاً. فأنت لست عالماً بمقدار ما فيك من علم فحسب، ولكن بمقدار ما ترى فيك من جهل. إذا أنا تطلّعت إلى الأرض والسماء ما كان المجهول فيهما عندي إلاّ معدوداً: لماذا كانت السماء زرقاء؟ لماذا تسمّرت النجوم فوق؟ لماذا أرى السحاب هكذا؟ أما العالم بالفضاء فيرى في الفضاء ألف مجهول ومجهولاً.

إن الروح الكبيرة التي تبصر مسيرة الكائنات إلى التكامل والاستغناء، وإلى المحجات[١] البعيدة، والتي تبصر قمة المطلق في جبال الوجود الممتدة إلى الله فتشعر بالدهشة والخشية والحيرة ـ أجل، إن الروح التي ذلك هو شأنها ليست مضطربة أو وجلة أو جبانةً. إن يكن من دهشة أو وجل فتلقاء هذا الوجود العظيم، وإزاء روعة الأبد وجمال الله. ولا يفقه هذا إلاّ قلب فهيم بصير امتد بصره إلى أعماق الوجود وغاية جُدُره[٢]. لذلك كان الرسول الكريم يتمنّى على الله أن «ربّي زدني حيرة»؛ إنها حيرة تمخّضت عنها المعرفة. أما الاضطراب فمخاض الجهل! الخشية علامة[٣] على الإحساس

(١) المحجة والجمع محاج ومحجات: جادة الطريق.
(٢) الجدر بضم الأول والثاني جمع جدار.
(٣) علم بالتشديد على الشيء: جعل عليه علامة.

بالعظمة! أما الخوف أو الجبن فعلامة الإثم والضلال!. إن الأرواح الضعيفة الصغيرة الضيقة التي لا تبصر أبعد من الأرنبة[١] هي سعيدة بخاتم من العقيق، وبلحية مرخاة، وبزيارة لمرقد من مراقد الأولياء، وبإطعام مسكين، وبتصدق على فقير، وبقراءة صفحات من «مفاتيح الجنان». تلك تصير بها إلى بحر اليقين والعرفان، فتسكن في الجنان ناعمة في هذه الأحضان من الحور العين وتلك الأحضان! لقد اطمأنوا إلى دنياهم وإلى آخرتهم، فهم القيمون على الصراط، الذين تحف بهم الملائكة. إذا هم قرأوا كتاب «السماء والعالم» عرفوا الطبيعة والعالم منذ أن كانا إلى يوم القيامة كما يعرفون الجيوب التي في ثيابهم. وإذا هم قرأوا «ناسخ التواريخ» الذي نسخ كل تاريخ فقد عرفوا تاريخ الإنسان منذ أن كان. فإذا قرأوا كتاب «منازل الآخرة» فقد كان لهم العلم بالميتة الأولى حتى قيام القيامة. فإنهم يعرفون القيامة أحسن مما يعرف الجغرافي دنياه. فخريطة الآخرة يعرفون مواضعها شبراً شبراً؛ أولم يقرأوا كتاب «مفاتيح الجنان»؟ فلم لا تكون مفاتيح أبواب الجنة في أيديهم؟ فماذا يبغي الإنسان بعد كل هذا؟

(١) الأرنبة والجمع أرانب: طرف الأنف.

ليس في هؤلاء ولو قليل من العطش، ولا قليل من الشوق إلى المجهول، ولا قليل من الشك. لكن ذلك الإنسان العجيب الذي امتلأ صدره بنور البصيرة والذكاء، فكان أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض[1]، هو الذي يهجر المضجع الدافىء المريح من بعد أن يخفق صدره فيلوذ في جوف الليل ببساتين القرية؛ ليغرق هنالك في الحيرة والألم فيبث الشكاة في ظلمات ذلك الليل البهيم. إذ هو يحس بعظمة الوجود وجمال الله، وحقارته هو وما انطوى عليه من حاجات. فإذا هو في أنين يصير به إلى غيبوبة.

هو يحس بتخلفه، لأن رؤيته قوية وبعيدة وعالية. فإذا اطمئن إلى مرحلة من الكمال أحس بأنه متخلف جداً، وبأنه محتاج جداً، وبأنه في اشتياق شديد إلى تلك القمة الشامخة البعيدة المطلقة. ولن يحس بالتخلف والانحطاط والخوف من لم يتجاوز تفكيره بيته ومحلته. ومن هو الذي يخشى

---

(١) من خطبة للإمام علي عليه السلام قال فيها: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض. قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها». وهو يعني بطرق السماء المعاني الإلهية الرفيعة المتعالية على المحسوس والحياة الدنيا. وبطرق الأرض المآرب والمنافع الزائلة. (شريعتي).

الانحطاط، ويشفق من السقوط؟ إنه الذي يستطيع أن يبصر قمة الجبل. لكن الذي إذا قاس الارتفاع لم يلقه غير متر أو مترين ربما ضاق إهابة بالغرور والفلاح والفرح؛ فلا عطش في روحه، ولا حاجة في قلبه.

ذلك الوجل الذي صار غيبوبة في تلك الروح الكبيرة المعذبة، المتعطشة، الولهى، المسؤولة التي كانت لعلي في خلوة دعائه؛ إنما تفسر بقضية جاوزت حدود العقل والعلم والفلسفة. فما كانت روح عظيمة كالتي لعلي تحفل بما يجري بالمدينة من أعراض، ولا كان الخوف يوقعها في غيبوبة. إنها لعمري روح عاشقة عظيمة كبيرة احتوت لا المدينة فحسب، ولا العرب جميعاً فحسب، ولا القرنين السابع والثامن فحسب، ولا البشرية كلها فحسب، وإنما احتوت الوجود كله جميعاً؛ إن وجوده قد جاوز الوجود؛ إنها شعلة حائرة، وذرة من الشمس منفصلة، مريدة، وجلة، ملتمسة، داعية، وتلك هي المحبة. وأعني بذلك الشعور بالانفصال، من الروح الكاملة، الشاملة، الأبدية، الذي هو مبدأه وعشيرته ووطنه الأثير عنده. وتلك هي المحبة المدهوشة الباحثة عن سبيل إلى العودة. تلك المحبة تشبه مجوزاً جافاً، غريباً،

منفصلاً يود لو عاد إلى مزرعة القصب[١].

الوحدة أو العزلة:

نرى في عصرنا هذا الأخير مفكرين كباراً من طراز مارتين هايدجر[٢]، وسارتر[٣]، وسيرس[٤]، وبكث[٥]، وأريك فريم[٦] يتكلمون عن وحدة الإنسان؛ فالوحدة قد باتت

---

(١) في هذا الكلام تضمين قول الشاعر «مثنوى»:

بشنو أزنى جون حكايت ميكند　　وز جدائي ها شكايت ميكند

وقد ترجمه أحدهم إلى العربية فقال: «استمع للناي كيف يقص حكايته، أنه يشكو آلام الفراق... يقول انني منذ قُطِعت من منبت الغاب والناس رجالاً ونساءً يبكون لبكائي، إنني أنشد صدراً مزقه الفراق حتى أشرع له علم الاشتياق. فكل إنسان أقام بعيداً من أصله يظل يبحث عن زمان وصله». (المترجم).

(٢) **مارتين هايدجر**: (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) فيلسوف ألماني، من مؤسسي الفلسفة الوجودية، من كتبه «الوجود والزمن»، «كانت وما وراء الطبيعة». (الناشر).

(٣) **سارتر**: جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) فيلسوف فرنسي من رواد الوجودية المتشائمة، انحاز إلى بعض مبادىء ماركس، رفض جائزة نوبل ١٩٦٤. أبرز مؤلفاته (الغثيان) و(الكينونة والعدم). (الناشر).

(٤) **ميشال سيرس**: فيلسوف وكاتب فرنسي درّس في جامعة السوربون له كتابات عديدة. (الناشر).

(٥) **بكث**: ساموئيل بكت: روائي ومسرحي ايرلندي، عاش في باريس منذ ١٩٣٧ بدأ الكتابة باللغة الفرنسية عام ١٩٤٥، له روايات ومسرحيات عديدة، نال جائزة نوبل للآداب ١٩٦٩. (الناشر).

(٦) **أريك فريم**: عالم نفس أميركي من أصل ألماني، وضع نظريات حول فرويد وماركس من جهة، وحول الديانة البوذية واليهودية من جهة أخرى. (الناشر).

من إنسان اليوم روح الفلسفة والفن والأدب. وربما أخطأت في اختيار كلمة «الوحدة»، فلقد قامت فلسفتي في الأعوام الأخيرة على فلسفة العالم وفلسفة الإنسان، فأنتم تستطيعون أن تلاحظوا في كتاب «الصحراء» نماذج من تفكيري المتلاطم في تلك المرحلة، وما زلت على ذلك التفكير؛ إلاّ أنني أخطأت في تسمية هذا الذي أحس به بـ«الوحدة». ما فطنت لما أقول، وما قاله سارتر، وهايدجر، والعبثيون، والوجوديون؛ فليس قولي وقول هؤلاء سيّان. فلا ينبغي لي أن أستعمل كلمة «الوحدة Solitude» التي استعملوها. فلا بد من كلمة «العزلة»، استعملها حيث هي التعبير عن إحساسي في فلسفة الحياة والإنسان.

الميل إلى «الواقعية»

في دنيانا نوعان أو لونان من التفكير: أحدهما الميل إلى (الواقعية) والمحسوس. وهي «الواقعية» الجديدة التي تحصر الآداب، والفنون، والفكر، والروح، والذوق، والإبداع، والآمال، والعقائد، والأهداف، والسياسة، والمجتمع، والفلسفة، وكل شيء في نطاقها، فما هي «الواقعية»؟ إنها تعني أن ما هو محسوس موجود. إن هذا المذهب متحكم في جميع المدارس في هذا القرن العشرين ما أُتَلَفَ منها وما اختلف.

فهو في الشرق مثله في الغرب، نراه في الماركسية الحاكمة، وفي الاشتراكية الغربية المملؤة بالروح البرجوازية، والتفكير البرجوازي الغربي في مناحي الحياة والإنسان و عقائد الإنسان، وفي وجهات فلسفة الحياة. إنما الفرق بين الشيوعية الحاكمة، والرأسمالية هو فرق في أسلوب الحياة المادية، والتطبيق الاقتصادي، وامتلاك رأس المال، وكذلك في نهج التوزيع والاستهلاك. فكلتاهما تأخذ الإنسان والحياة مأخذاً يقوم على الميزة المادية وأصالة الاقتصاد. وكلتاهما أيضاً «واقعية» الحياة المادية والاقتصادية.

إن فلسفة الذرائع (Pragmatisme)، والفلسفة المادية(Matérialisme)، وفلسفة المنفعة (Utilitarisme)، وفلسفة الحرية الفردية (Libéralisme) التي تعني حرية التجارة، والتخلص من قيود الجمارك، والحكومة في الانتاج والبيع، والرأسمالية (Capitalisme)، والشيوعية (Communisme)، والاشتراكية الشاملة(Collectivisme)، وأصالة الاقتصاد (Economisme)، وأصالة الحياة (Biologisme)، وأصالة الطبيعة (Naturisme)، وأصالة الفرد (Individualisme). إن هذه جميعاً، وحتى المسيحية البروتستانية(Protestantisme) قد خضعت لما هو واقع في المجتمع وموجود، من مسالك الأخلاق والغرائز خيّرة كانت أم شريرة. ثم خضعت

لفرويد[١]؛ فعرضت كل ما هو راقد ومتحفز في المجتمع من غباوات ونزوات وشهوات في الكتب، وفي المسارح، وفي كل مطرح من هذه المطارح التي نرى فيها الأطفال.

ذلك كله هو «الواقعية» الجديدة أو «الواقعية الجديدة المتطرفة». ومن ثم فـ«الواقعية» الجديدة ليست مدرسة فلسفية فحسب، بل هي رؤية، وسلوك عام، وعلامة الثقافة الجديدة، والحضارة الجديدة، والحياة الجديدة؛ بدأت برنسانس ـ أي منذ التحول من القرون الوسطى التي كانت عصر الدين، والروح، والتعبد، والمعاد، ورفض «الواقعية»، وعصيان الغرائز والحاجات، من أجل الطهر والكمال، والتصعيد في الأعالي ـ فكانت اليوم ميزة التفكير الغربي في أنحائه الفلسفية والفنية والأدبية والاجتماعية والسياسية على تناقضها. فهي في الاشتراكية كما هي في الرأسمالية؛ فالروح التي تجري فيهما هي روح برجوازية. وذلك بأنّ العصر الجديد ـ الذي بدأ من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ـ هو عصر البرجوازية النامية والمنتصرة على الطبقة الاقطاعية التي كانت في القرون الوسطى منذ القرن الخامس إلى

(١) **فرويد سيغموند**: (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) فرويد طبيب نمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي. (الناشر).

الخامس عشر. وما من شك في أن الشيوعية ـ وهي التي تخالفه من حيث الطبقات ـ شبيهة به. وأعني بهذا المذهب روحاً وفكراً وتفسيراً للإنسان والحياة والعالم؛ فهي شق من هذه الروح انفصل منه. وههنا يبدو لنا الفرق بين اشتراكية الشرق التي لها ماض مجيد في الحضارة، والأديان، واشتراكية الغرب.

الهروب من «الواقع»:

ونجد إزاء هذا مذهباً جديداً في الفلسفة، والفن، والأدب، والفكر، والشعور يسمونه مذهب التجريد أو المذهب «التجريدي»، وهو الذي يرى للإنسان قيمة تفوق «الواقع» وتتعداه. فلا بد للإنسان من أن يتجرد من قيود المجتمع، والطبيعة، والحس كيما يسلك سبيل التكامل الروحي؛ فيأخذ ضارباً بميوله ورغباته عرض الحائط في تربية ذهنه تربية مجردة، حتى إذا كان له ذلك كان له أن يهتدي إلى مواهبه وملكاته. فعلى قدر ما يتعلق الإنسان بـ«الواقع»، وبحاجاته المألوفة، وبالطبيعة، وبالتقليد، ينحط ويتخلف.

فالميل إلى الفكر إزاء «الواقع»، والتجرد، ولأقلها واضحة: فالهروب من «الواقع»، وعصيانه هو ميزة بارزة في الآداب الغربية والأمريكية الحديثة. لقد تسرّب التفكير الغربي

والأمريكي الجديد، وكذلك الفن في البلدان المتخلفة، بل لقد تسرب في الشبان المثقفين ولا سيما في كتّاب الاتحاد السوفيتي وفنانيه. وإنه لموجة جديدة تعصى «الواقع» وتسعى إلى الفرار منه لتستسلم للغيب وحده، بالرغم مما في هذا من تناقض بين اتباع الميتافيزيقية «الحديثة» والمائلين إلى «الواقع». وكلاهما «الواقع»، والهروب من الواقع انحراف؛ أحدهما يرى الإنسان غريباً عن العالم، لأن له وجوداً يستمده من وجود العالم يحس ويعي، ولأنه خلاق فهو أرفع من الكائنات المادية. فليس للطبيعة فكر أو حس. ،ليس لها الخلق والبناء والإبداع؛ إنما الإنسان هو الذي يريد، ويختار، ويبني، ويشعر بما يعمل وبما يحيطه من العالم. فهو خير من العالم المادي وأفضل. ويرى هذا التجريد الجديد أن الإنسان نسيج وحده؛ فهو أكبر من «واقعه». هو يستطيع أن يصنع من المادة ويخلق ما يحتاجه ويريده. والفن هو ملكة إنسانية تستهدف تكامل الحياة المادية. فكيف لنا أن نحصر هذه الملكة كما تحصرها «الواقعية» في الحياة المادية؟ إن ذلك هو القضاء على عبقرية الفن. لئن نظرنا إلى الإنسان على أنه مادة، فقد وضعناه دون منزلته. ألعله كسائر الموجودات؟ ولئن أخذنا الإنسان حيواناً مادياً، لقد قتلنا الفن. إن الفلسفة، حيثما تكن المادة والمحسوس تمت. وإن الإبداع والذكاء

والبناء الخلاّق حيثما تترصده المادة والمحسوس يجمد ويضيق.

ومهما يكن من أمر فـ«حتمية» اليوم قد فرضت على الفكر، والروح، والأخلاق، والحياة، والمعرفة، والمستقبل، والإنسان وضاعة القيم الإنسانية، وضيق الحسّ وضعفه، ومحاصرة العصيان والثورة والإبداع، وتكبيل المواهب التي تتجاوز المحسوس إلى الارتقاء والأبد والمطلق، وإلى الميول والحاجات، والأحاسيس المدهشة التي تفضّل الطبيعة والتي ينضم إليها الإنسان. إن إنسان يومنا هذا قدير ولكن غير جدير، هو وحش في حضارة، هو يجوب الأعالي فيتجاوز حدود الأرض والجذب. ولكنّ تحليق قلبه لا يتجاوز تحليق تاجر محتال حقير لا يعرف غير المنفعة، وغير القدرة، وغير اللذة!

إلاّ أن هذا التجرد، والفرار من «الواقع»، وعصيان المادة، والطبيعة الذي يعد سمة العصر الحاضر، والذي نهض لمقاومة «الواقعية» البرجوازية الحقيرة، والموجات العاصية في الشباب الغربي، إنما هو أكذوبة وخيال ومرض؛ إنه لون من التصوف والدروشة لا يفقه شيئاً، هو تصوف المتخم الغارق في النعيم.

نشأة العبث في الفكر الغربي

من هم المرفهون؟ هم الذين يأكلون ولا يعملون. إنهم الآكلون كدح الكادحين. إنهم «يستهلكون» من غير أن يتعبوا؛ أو يعملوا، أو يعانوا العمل والانتاج.

المرفهون هم الذين يأكلون؛ فلا تخالجهم حقيقة الحياة وعسرها. كهذا يتولد الرفاه: خلواً من هموم الحياة، ومن الشقاء الذي يكابده العاملون المنتجون.

والنظام الاجتماعي القائم على التفاوت الطبقي يتيح له، «حق الأكل» لا «العمل»، فلا «اللياقة» في الحسبان ولا «الحاجة». وحياة الإنسان المرفه رخية ناعمة، لأن الأشياء كلها في متناوله إذا أراد شيئاً كان له ما يريد. فلا مكان لنقص، أو بحث، أو خوف، أو حاجة، أو قلق، أو اضطراب. لذلك ينعم بالاطمئنان والهدوء. هو لا يعمل فيفكر في نتيجة العمل، ولا واجب عليه فيتحتم عليه أداؤه، ولا يحاول فيفوز أو يخيب، ولا يتألم فيبحث عن مهرب من الألم، ولا يقاسي من مشكلة فيفكر في سبيل إلى الانعتاق منها، ولا هو خائب فيسعى إلى أمل، ولا هو جائعٌ فيشغل بالخبز، ولا هو مفتقر إلى شيء فيُعمل ذهنه لعله أن يسد افتقاره. إنه خال من كل هذه الحقائق، فلديه ما يريد. إنه

يتعذب لأنه لا يعرف ما يريد. هو إنسان خلت حياته من المشكلات، ومن المحاولات، ومن النضالات، ومن النقص، والعذاب، والحاجة. هو إنسان لا أمل له، ولا هدف، ولا معنى. إنه لا معنى لحياته، لأنه لا معنى لوجوده. إن وجوده أو بقاءه بلا مسوغ. أجل، لا معنى للعالم في نظره. فما أسرعه إلى العبث والفراغ.

من هنا ينشأ العبث؛ أي من رؤيته الفلسفية للعالم؛ أي من عالم طبقته. إن البرجوازي هو «Absurde». إن هذا «العبث» هو روح الغرب وفلسفته التي راجت في أنحائه وجهاته. وما هو باكتشاف «البيركامو»[1]، ولا وليد عبقرية «سموئيل بكت»، ولا الحقيقة التي أدركتها الموهبة الفلسفية، وهي المعجزة الغربية. ليس هو من صنع العقل الغربي، بل رَشَح البطن الغربية المتخمة التي تأكل جهد الآسيويين والأفارقة فإذا عملت تلك البطن ساعة واحدة في الفن فنالت مائة مارك، فإنها مهما ترقص، وتسكر، وتمجن، وتتلهى، وتعربد ـ وذلك هو هدف الحياة الغربية ـ يبقى لها فضل من

---

(١) **البير كامو**: (١٩١٣ ـ ١٩٦٠) أديب فرنسي ولد في الجزائر، عبّر عن شعوره بعبثيّة المصير الإنساني في مؤلفات مختلفة، نال جائزة نوبل ١٩٥٧. (الناشر).

الوقت لا تدري كيف تنفقه. إن الأكل بلا تعب، واللهو المتبطر يأتيان على وقار الإنسان وصبره؛ فيرى الآكل اللاهي دنياه عبثاً بلا طائل. فلا يخشى شيئاً، ولا يرهب أمراً، لأنه لا يستهدف شيئاً. فالحياة عنده لا معنى لها. وليس معلوماً لِمَ يحيا؟ فيتمثل له من خلال ذاته فراغ الحياة، وفراغ العالم، وعبث الوجود وسخفه.

وهذا هو مصدر الفلسفة الجديدة الفارغة العابثة. وأعني بذلك المصدر: الإنسان الفارغ والحياة العابثة. لا جرم أن تغدو خالية تافهة حياة من لا عمل له، ولا واجب عليه، ولا عذاب يعاني منه. وما الفن الأوروبي والفلسفة الأوروبية إلاّ لملء هذا الفراغ في حياة البرجوازيين. فلا تثريب على تلك الفلسفة إذا هي قالت أن السماء خالية ،وأن العالم بلا عقل، وأن الوجود بلا تدبير، وأن الكون إنما جماعة حماقة وجنون. لقد صدقت هذه الفلسفة إذ هي تعبير عن وجودها هي، وتفسير لطبقتها. نعم، لقد صدقت هذه الفلسفة لمّا قالت ان الحياة تافهة، وان الفن تافه، وان الغرض من الخلق تافه! ففنُّ الغرب هو صناعة التلهي وصناعة المجون. أرأيتم أفلامهم في أماسيهم كيف تعرض لهم ما لم يخطر ببالكم قط من الألعاب الهائجة المهيجة المضطربة. إن حياتهم بلا اضطراب، لأن

طبقتهم بلا اضطراب. فليس منهم من عانى، أو يعاني، أو سوف يعاني ألماً، أو جوعاً، أو فقراً، أو مشقة، أو حرماناً، أو نقصاً، أو حاجة.

إن من يعش عيشة رتيبة، وتيرتها واحدة لا تتغير، يضقْ صدره ويسعَ إلى الصخب والهياج، وإعمال الذهن لخلق العجيب والغريب من الشعوذة، وتسخير الجن والأرواح؛ إنه في حاجة إلى ما يهيج ويدهش. إن هؤلاء الغربيين كاذبون في ما يزعمون من رغبة فيهم في العودة إلى سنن الشرق وعلومه الغريبة، وغيبياته المنحرفة، فمصدر هذه الرغبة هو نزوة الروح المنحرفة الخالية من حقائق العيش والحياة.

وقوام هذا المذهب أن الإنسان رابض في عالم الوحدة. كما قال هايدجر: «لقد قُذف الإنسان في صدر صحراء هذه الطبيعة، وليس له موضع في أي مكان. إنما الإنسان قد عشق الله». وأما البير كامو فيقول: «إني أتمرد! لأن العالم لم يشترط لوجودي شرطاً، ولأنه قائم على ظلم الإنسان والاعتداء عليه. فأنا مضطر إلى أن أحتج على الله، ولكن لا وجود لله!».

أحسنت! مناطحة الهواء؟! أهي بطولة أن تحتج على من ليس له وجود؟! فأي تمرد هذا وأي احتجاج؟ تمرد على ما لا وجود له، واحتجاج على من قلت أنت أنه غير موجود؟!

كل هذه الفلسفات ـ «فشل» سارتر، و«عبث» البير كامو، و«فعل العبث» أندريه جيد، و«غربة» هايدجر ـ إنما هي تعبيرات مختلفة عن حقيقة واحدة، هي ما تعانيه روح الإنسان من أزمة في هذه الحضارة الجديدة.

إن أندريه جيد[1] وهو «مفكر كبير» ـ يقول: إن كل ما يقوم به الإنسان هو عبث (Absurde)، ويسألونه عن العبث فيقول: إن العبث هو ما يفعله ذلك الذي يخرج في الصباح من بيته، فيمشي وقوراً متزناً، حتى إذا بلغ المنعطف صادف رجلاً محترماً وقوراً، لا يلبث هذا الرجل المحترم الوقور أن يصفعه، وإذ يحتج المصفوع يستأنف الصافع مسيرته، حتى إذا كان الغد حرر الصافع للمصفوع رسالة يعتذر فيها عما فعله بالأمس!

لابأس، ما معنى هذا؟ لا شيء! إن يكن له من معنى فليس غير العبث.

وإنما حياتنا هي هذه. فمنذ الشروق حتى الغروب نفعل مثل هذه الأفعال؛ فإذا ضربنا أحداً وجدنا من يؤيدنا ويشجعنا. فالمؤيدون والمشجعون إنما أيدوا وشجعوا لأنهم يفعلون ما نفعل. فضربنا إذن منطق وعقل. والمضروب إذا ما شكا كانت

---

(١) **اندريه جيد**: (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) أديب فرنسي من أنصار التحرر الفكري والأخلاقي له مؤلفات كثيرة ـ نوبل ١٩٤٧. (الناشر).

شكايته منطقاً أيضاً، لأنه قد وجد مؤيداً ومشجعاً. إلاّ أن كل الأعمال والحركات التي يقوم بها الإنسان، فتقوم عليها حياته إنما هي عبث مثل هذا فيه السخف، والسخرية، والحماقة، والعبث، والضياع.

إنما الحياة البرجوازية هي هذا اللون من الحياة. لماذا تصل هذه الفلسفات إلى أن العالم تافه وسخيف؟ إن العلة في أن هؤلاء المفكرين الكبار لا يستطيعون أن يحصروا أحاسيس الإنسان ورغباته، وميوله، واحتياجاته، كما كان يفعل الفكر المادي الرأسمالي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ فثمة حاجات تتجاوز حدود المادة. فهم كما قال إقبال في حاجة إلى تفسير العالم تفسيراً روحياً، وفي حاجة إلى قاعدة من العقيدة في هذا العالم تتيح لهم الإتصال، والالتحاق، والأمل، والهدف إلاّ أنهم لا يجدون الضالة التي ينشدون. لقد نفروا من الأرض، ومن الانتاج، والاستهلاك، والحياة الرغيدة. إنهم يشعرون بنقص ما. ومهما يشعرون يقعدون عن سد النقص، أي عن تحويله غنى وكمالاً. فما هي إلاّ أن يتورطوا في العبث، والقنوط، والتردد، والاضطراب، والعمى عن الباطن. وذلك هو الوصول إلى العبث، والفراغ، والخلاء الذي وصل إليه الفكر الأوروبي وفلسفته وفنونه.

وفي هذا ما فيه من نزوع إلى وحدة الإنسان، إلى وحدته في الوجود بنوع خاص. ومن عسى أن يكون ذلك الإنسان؟ إنه الذي شبع من الحياة، ومن المال، ومن الجاه، ومن اللبوس، ومن الأكل. ما أسعده؛ إنه يعيش في الجنة ـ في جنة الأنعام ـ، وفي اطمئنان الشجر الذي وصفه لاوتسو(١) بأنه اطمئنان الشجرة التي ارتوت من الماء فشبعت، والذي يرتوي أكثر من هذا يشعر بالفراغ والوحدة والغربة.

غير أن الدعاء ـ الذي هو تجلي الروح ـ لا يريد أن ينحصر في ما انحصرت فيه «الواقعية» المبتذلة من الابتذال، والتقوقع في ما هو كائن، وتسخيف ما هو في الوجود. ففي الدعاء حاجات أبعد من حاجات المادة، وأرفع مما هو في القبضة والمتناول؛ إن فيه تجلياً وسعياً إلى الأرفع والأشمل. ولئن أدرك الدعاء غربة العالم ووحدته، وعوز الحياة المادية، إلاّ أنه ما آمن قط بهذه الوحدة التي تعانيها الروح الغربية، فساقتها تلك المعاناة إلى السخف والعبث المطلق في العالم. وما ينطوي عليه الدعاء من احتياج واضطراب وأشواق لا يخص روحاً واحدة فحسب، بل هو يخص روح العاشق

(١) **لاوتسو**: فيلسوف صيني (القرن ٥ أو ٦ ق. م) يعتبر مؤسس مذهب الطاوية، له كتاب «الطريق والفضيلة». (الناشر).

المحب، تلك الروح المنفصلة المنقطعة التوّاقة.

وحيث قلت «الوحدة» كان عليّ أن أقول «العزلة». أولم تتمخض هذه العزلة عن الدين، والتصوف، والفن الذي كان مخاض العذاب، والمحاولة، والاضطراب، والحس، والمحبة؟ أجل، ولم تتمخض الوحدة عن شيء. ما الفرق بين الوحدة والعزلة؟ الوحدة تعني أنك «بلا أحد». والعزلة تعني «بلا هو». وهذه الـ«بلا هو» تعني الـ«هو» والمحبة في العالم والوجود، مثلما تعني امتلاك الأهداف العظيمة. وامتلاك الأهداف العظيمة يعني امتلاك هوية الإنسان وعنوانه، يعني أن الإنسان هو جزء منفصل منفرد. إن يكن هذا الجزء جزءاً وكلاً، أي إذا كان هو القيم على نفسه لقد كان جزءاً ميتاً خامداً كأجزاء الطبيعة. إنه يعاني ويحاول بغية أن يصل نفسه بروح كبيرة، بالروح الشاملة. هو يسعى إلى العلو والرقي. وهو يمل أبداً، ويفر أبداً من الحالة التي هو فيها؛ وهذا الفرار مما هو موجود، والشوق إلى المجهول، والبعيد، والمطلق يحدو روحَ التواق الهاجسة المضطربة على أن توجد الإنسان القدوة. والدعاء هو الإرادة التي تجمعت فيها كل طاقة. ، فتاقت إلى أن تفارق حالاً هي فيها لتبلغ العلو والكمال. وما أجمل ما قال الكسيس كارل: «إنما الدعاء هو تحليق الروح الإنسانية في عوالم عظيمة من محجة الروح».

ومن هو الذي يدعو؟ الدعاء هو أن تطلب ما تتيحه اللياقة والعمل والفكر. ما الدعاء بقسر. الدعاء هو إرادة، وتكرار الإرادة والاحتياج، وتلقين ما في العقيدة من أصول، والمحافظة على إرادة الإنسان وعقائده المقدسة؛ إن لم يكن ذلك بقيت الروح في قيود المادة الحقيرة المبتذلة.

إن الدعاء هو أن نريد ما تفتقر إليه حياتنا هذه التي لها وجود، بل إن الدعاء الرفيع هو أن نريد ما هو أبعد من حياتنا هذه التي لها وجود. من هو الذي يدعو؟ من هو الذي يريد بكل ما فيه من قوة ومحبّة واضطراب وإشفاق؟ إنه الذي يرى المسافة بين ما هو موجود، وما ينبغي أن يوجد، كبيرة.

ومثله هو المضطرب، ومثله هو المريد أبداً، والمشتاق، والمحتاج، والعطش، والداعي. أما الذي انعدمت المسافة فيه بين ما هو موجود، وما ينبغي أن يوجد، أو كانت صغيرة ضئيلة يأتي عليها جاه أو ربح، فإن دعاءه ـ كما هي مسافته ـ ضئيل رخيص، ؛ فإنما يدعو هذا «مؤسسة» تكثر ماله، وتقوي ضعفه، وتراعي كسله. أما الروح الكبيرة العطشى العاشقة فترى الدعاء معراجاً نحو الأبد، وتحليقاً صوب القمة المطلقة، وتصعيداً في ما وراء ما هو موجود.

وأنا آسف على أنّي لا أملك وقتاً يتيح لي الكلام عن

الدعاء الإسلامي. فأنا مضطر إلى أن أكتفي بأسلوب واحد في التحقيق، ليزاوله من الحضور من يرغب في مزاولته، بعد أن عدمت أنا مزاولته. وهو عمل علمي، وأسلوب علمي بحت في الأدعية الإسلامية؛ فالأدعية الإسلامية ليست بدعاء، إن هي إلاّ نصوص في التدريس، والفلسفة، والعقيدة صيغت خطاباً لله انطوى ـ في ما انطوى ـ على مطالب وحاجات. فهي دروس في معرفة العالم، ومعرفة الله، والإنسان صيغت صياغة عميقة لطيفة جميلة. ولقد جئت بنماذج من الصحيفة السجادية لأتلوها في هذا المجلس، فألفيت الوقت ضيقاً. والحق إن الدعاء الإسلامي عماده أشياء ثلاثة: أما الأول، فهو مخاطبة الله، يعمد فيه الداعي إلى ذكر صفات الله، ومنزلته، وذاته، وروابطه بالكائنات وبالإنسان، وبرابطة الإنسان بالله. فإذا محونا لهجة الخطاب صفا (الدعاء) لنا كتاباً كأنه قد وضع في معرفة الله. ما من مكان ههنا للدعاء؛ فما من أحد يريد من الله شيئاً، بل هو يشتمل على مخاطبة الله؛ وإنه لخطاب أو نداء يبلغ من الجمال، والدقة، والعمق ما يصلح لأن يكون أقوى دلالة على وجود الله، وأعمقها، وأدقها.

وأما الثاني، فهو الإرادة؛ وما هذه الإرادة بإرادة الحاجات المادية التي ألفناها وعرفناها، بل هي إرادة الخصال

المحمودة والفضائل الكريمة.

فإذا تكرر في هذه الأدعية شيء، فشيء من هذا القبيل: «اللّهم أنعم على الناس ما تنعم به عليّ، وعلى أهل بيتي، ومجتمعي من الخير والسعادة والعدل. اللّهم نجِّنا من الذل والحقارة، واعصمنا من السؤال والظلم والضعف». لئن حذفنا من هذا الكلام لهجة الدعاء وجدنا أصولاً في الأخلاق، والحياة الاجتماعية، وتحريضاً للإنسان على أن يفهم ما الضعف وما الذل، وعلى أن يدرك أساس السعادة والبؤس في أي أرض يقوم.

ولقد أردت أن أدرس كتاب الدعاء هذا، بعد أن ترجمته في ضوء الأدعية الإسلامية، فما استطعت. إذ لم يكن وقتي وسيعاً، ولكنني قرأت، وأنا بأوروبا، ترجمة دعاء كارل، ودرست الأدعية الإسلامية، فاهتديت إلى ما يتألف منه الدعاء الإسلامي. فهو يتألف أولاً، من فصاحة اللسان وبلاغته. فنصوص الدّعاء الإسلامي من أجمل النصوص الأدبية، وهي خير أنموذج يستقي منه طلابُ الأدبِ الفصاحةَ والبيانَ. وفي هذا ما فيه من دلالة على عناية الإسلام بالجمال وبالفن إذا هما ساعدا في التكامل الروحي الإنساني. ولم يعن الإسلام بالجمال وبالفن فحسب، وإنما أمر بالاهتمام بهما، والاعتماد

عليهما أمراً. وثانياً، من كلمات كانت المزاوجة بينها موسيقى. فكان الكلام كله موسيقى. فالكلمات مشتقة ومسجّعة على نمط موسيقي، والكلمة الواحدة تألّفت حروفها من مخارج موسيقية، والجملة قد جرت الكلمات فيها جرياناً موسيقياً؛ فإذا النص كله جوقة موسيقية تتراقص فيه الألفاظ والمعاني بروعة وعمق. فكان لهذا الكلام الجميل تأثير في روح الإنسان يدفعه إلى المحبة، وإلى قوة الدعاء في تأثيره.

وأما الثالث، فهو الفكر الذي يحويه الدعاء الإسلامي. فالدعاء الإسلامي ينطوي من أوله إلى آخره، (والصحيفة[1] خير أنموذج)، على الحديث في الله، وفي الإنسان، وفي الأخلاق، وفي الاجتماع، وفي ما على الأفراد لبعضهم بعضاً، وفي ما على الطبقات لبعضها بعضاً. كما ينطوي على بيان العقائد الإنسانية، وعلى الخوف والفرار من الأخطار والبشاعات الاجتماعية والفردية والأخلاقية.

وهذا نوع من الإرادة، وليس مطالبة أحد بشيء فحسب. الإرادة هي أن أُعلم المراد منه حاجتي، وإصراري، وشعاراتي، وهويتي، ونظرتي إلى الحياة. وهذا الجانب من

(١) الصحيفة السجادية: وهي أدعية الإمام علي بن الحسين ـ زين العابدين عليه السلام. «الناشر».

الدعاء، ليس أقل قيمة من الجانب الأول الذي يتعلق بإشباع الحاجات.

ونلاحظ في الدعاء الإسلامي، ولا سيما الشيعي، جانباً آخر سياسياً واجتماعياً. وأنا أعلم أن الشيعة قد عانوا ـ ولا سيما في زمن الإمام زين العابدين عليه السلام ـ الويلات، ولم يكن ثمة مجال للنضال والجهاد. ولقد قُمعتْ ثورة الإمام الحسين عليه السلام البغي والطغيان، فقتل أنصاره جميعاً، وما بقي منهم إلاَّ الإمام زين العابدين. لم يكن في المستطاع أن تكون هناك محاولة عسكرية للإطاحة بالحكومة، ولا أن يكون أي نشاط في السياسة. لم يكن في المقدور مزاولة أي لون من النضال؛ حتى لقد كانت الأحوال السياسية، والاجتماعية تشير إلى هلاك الفكر، وهذه النهضة، وهذه الطريق، لقد كانت الأحوال تشير إلى هلاك التشيع؛ فأجهزة الدعاوى، والمحاريب، والمنابر، والمساجد، والقضاة، وسائر القوات كانت تخضع للخلافة؛ فما كان الإمام السجاد إلاّ وحيداً إزاء هذا البغي الذي بدا إجراماً وقتلاً وإرعاباً. فإذا الدعاء الشيعي، وتلك هي الحال، يغدو ملاذاً، بل كميناً يتهيأ للهجوم والبقاء. ولمن البقاء؟ إنه لهذا الفكر، ولهذا الشعار، ولهذا الإيمان الذي تعاضد العالم الإسلامي كله عليه. وعلام الهجوم؟ على الأجهزة التي سلبتْ الناس قدرتهم على

الكفاح، فلم يبق إلاّ الدعاء حربة يطعن بها العدو.

لقد قضت كربلاء على الجهاد الفكري، بعد أن قضت على الأنصار كلهم، فقتلت الرجال وأسرت النساء. فما سلم إلاّ الإمام السجّاد عليه السلام الذي كان يعتمل فيه واجبان: الأول، هو المحافظة على نفسه ليحافظ على كينونة فكره وإحساسه وعقيدته بالدعاء. والثاني، هو إشاعة هذا الفكر في الناس، والذود عنه. فما كان بد من الدعاء يتخذ حربة في النضال الفكري والاجتماعي. وخير الدعاء هو الصحيفة السجادية وحياة الإمام السجّاد عليه السلام.

ولم يكن في مستطاع الإمام السجّاد أن يمارس أي نضال. ما كان في مستطاعه أن يمارس ما كان الإمام الصادق يمارسه من تدريس، ولا أن يمارس ما كان يمارسه الإمام علي، والإمام الحسن من حرب وقتال، ولا أن يفعل ما فعله أبوه الحسين من ثورة تبغي الاستشهاد. ولكن قلبه كان يفيض ويفيض، فكان في كل مكان يتوسل بالدعاء إلى الكلام عن عقيدة الشيعة في الوجهة التي يعرف بها الإنسان ربه، ونبيه، وأئمته، وعليّه، والسجايا الإنسانية، وما آل إليه جهاد الحسن والحسين، وما ينبغي لنا أن نتخذه في حياتنا الاجتماعية، وما علينا من صمود لمكافحة الجائرين الخاتلين. وكان كلامه

كأعذب ما يكون الكلام الذي يفيض بالتوكيد أن الفكر إن حوصر، والإنسان إن عدم المؤيد والنصير، فإن الدعاء هو الوسيلة إلى الدفاع عن الحقيقة، والعلامة على أنك تؤدّي ما عليك من واجب في الجهاد والدفاع، وفي تخليد نفسك. إن الدعاء هو الوسيلة الوحيدة ـ حيث تعجز القدرة عن ألوان الكفاح ـ إلى الكفاح!

تقولون ان هذه الوسيلة هي أضعف الوسائل. نعم إنها لكذلك، ولكن القول يتسع في أن هذه الوسيلة الضعيفة إلى مناهضة الظلم، لا تجعل الإنسان في حل منها؛ إذ ليس في الإمكان أن نمنع الإنسان من أن يتقزز في نفسه، فيصوغ أفكاره وعقائده دعاءً يتضمّن على آماله، وآلامه، وشعاراته، وإرادته المقسورة المهزومة المضيمة، يخاطب به الله فيشخص موقفه من عدوه، ويلقن نفسه عقيدته وإيمانه.

وفي هذا ما فيه من سر بقاء الإنسان، وخلود الإنسانية، عندما يواجهان خطر الفناء. وهو بعد ذلك ـ وأعني الدعاء ـ وسيلة إلى الافصاح عن الفكر، وتبليغ الرسالة، وتربية المشاعر، والمحافظة على حياة الروح المكافحة، لتؤدي ما عليها من واجبات كبيرة في محض الصداقات والعداوات في المعتقدات. هو كذلك إذ تحاول القوى كلها الإجهاز عليه.

وأريد الآن أن أتطرق إلى أمر لا حيلة لي منه. وهو هذه الدنيا، نجدها في الإمام السجاد، وفي صحيفته مفعمة بالعجائب، والمعجزات، والجمال، وإلهام الدعاء.

لاحظوا أن للإمام السجّاد تاريخاً خاصاً يتميز به. إن أئمة الشيعة جميعاً هم ضحية بطش التاريخ، وكلهم مظهر من مظاهر المظالم التي كانت الرعية تعانيها، ومن مظاهر ما يؤول إليه التماس العدل والحرية والفضيلة في نظام جائر معتد مخيف. بيد أن للإمام الرابع حياة خاصة؛ كان فتياً لما شاهد بعينيه تلك المجازر الرهيبة التي عرفتها كربلاء. وأشق من ذلك عليه أنه شاهد بعينيه استشهاد الأهل والمجاهدين؛ فحرم الشهادة، وقضي له أن لا يكون له نصيب من الجهاد والاستشهاد، بل من الحياة والبقاء. وأشق من هذا جميعاً، أن يضطر إلى مغادرة تلك الصحراء المسبية، التي كانت أرضها تنبت ورداً أحمر، كأنه قد تضمّخ بدم الشهداء، ليحس بدم محمّد وفاطمة وعلي والحسين يجري في عروقه، وليعاني حياة جراحها أبلغ من جراح السيف، والموت بإزائها نعمة وخلاص، وليخطو نحو مصير موجع مخيف. وأشق من هذا جميعاً، أن يكون وحيداً بين اليتامى والأرامل، وأن يرافق قافلة الأسرى التي كانت في زعامة زينب، هذه التي راحت تقود النهضة والثورة بعد الشهادة، وبعد تلاوة وصايا

الشهداء، إلى حيث عاصمة الغدر والاجرام. وأشق من هذا جميعاً، أن يديه في هذه القافلة مكبلتان. فإذا مر ببلد من هذه البلدان الغبية، عاينته عيون الخائنين والمأجورين والذئاب والثعالب، والجلادين والمنافقين والدجّالين، والفئران التي تتعبد الفلس والبطن شزراً. وأشق من هذا جميعاً، أن يساق إلى بلاط جلاد حقير، ليكابد الوحدة والعذاب في ظل السيف، وليقاسي ضياع ما كان من ثورة الإسلام، وليبصر ما عاناه أهله من عذاب، والكعبة يقذفها الحجاج بالحجارة، والمجزرة الرهيبة التي صنعها بسر بن أبي أرطاة[١] في مدينة النبي؛ فأباح نساء المدينة وبناتها، وهن زوجات الصحابة وبناتهم، لجنده ثلاثة أيام. ثم باع النساء وكأنهن الجواري في سوق الرقيق[٢]. ثم ليجد الإسلام، ورسالة نبي الإسلام آلة يستعملها المجرمون في خدمة الجاهلية السفاحة. ثم ليجد

(١) بسر بن أبي أرطأة: (ت نحو ٨٦هـ / ٧٠٥م) قائد من أنصار معاوية، أسال الكثير من دماء وشرف وكرامة المسلمين ومقدساتهم، سيما من شيعة علي وآل البيت (الناشر)..

(٢) ما كان الآباء والأمهات من أهل المدينة، وأعني الجيل الأول والثاني من الأنصار، وفريقاً من المهاجرين، يتعهدون حيث يزوجون بناتهم عذراتهن. وذلك بأن يزيداً قد انتقم من أهل المدينة الذين عاشوا في كنف الرسول. وقد قالوا أن الإمام السجّاد لم يكن إذ ذاك بالمدينة. فقد رووا أنه كان بينبع حيث كان لعلي مزرعة. (شريعتي).

رجالات الإسلام وقد تطوعوا لخدمة الحكومة في زهد وتعبد وعفة وحشمة، ليس لها أدنى حظ في الصدق والشرف، أو للصمت المداجي. ثم ليجد ساحة الدفاع عن الحقيقة، والعدل والحرية والإسلام الحق، خالية. ثم ليحس بأنه وهو وارث رسالة النبي والبقية الباقية من عترته، والمعقودة عليه الآمال في مقاومة القوى الباغية، والدفاع عن الحقوق المهضومة وحيداً فريداً. أوّاه، ما أعظم ما كان يقاسي من الأحزان، ومن الذكريات المريرة القاتلة، التي كانت له من ذلك اليوم الذي أريقت فيه الدماء. وما أعظم من كان يجاهد الحياة في هواء تناثرت فيه برادة الفولاذ، وأرض سبحت بالدم والفجيعة، وفضاء تلبد بالارعاب والارهاب، وسماء تمطر خوفاً ورهبة، ومجتمع أخرسوه بعد عاشوراء، بالخوف والارعاب فتغشّى بصمت أسود وأمن أحمر. فما عرف ذلك المجتمع غير منافعه الخسيسة. فإذا الناس بين متعبد لنفسه أو لبطنه، ومحجوز عن حريته، لا يستطيع أن يطل على الأمة والدين ليرى ما أصابهما. فكانت تلك الروح روح الإمام السجاد، تعايش بعد عاشوراء أعواماً مشؤومة رهيبة. كانت أعواماً تحمل في طياتها آناً بعد آن مصائب وأرزاء؛ إنها الأعوام التي شهدت إبادة آخر قاعدة من قواعد الكفاح، إذ أبيدت فيها آخر كتيبة من كتائب الجهاد التي كانت تدين

للقيادة والعدل بالولاء؛ إنها الأعوام التي ساد فيها الصمت والاستسلام. فإذا الأنفاس حبيسة في الصدور، وإذا الحلاقيم المحتجة الصارخة محزوزة بالسكين. كانت الحال هي تلك. إن الناس ما كانوا ليستطيعوا أن ينبسوا ببنت شفة؛ كان السلطان من دمشق إلى خراسان للسيف والإفك، وكان الإمام السجاد في هذه الامبراطورية العظيمة، التي تكوّنت من الدم والبطش والإرهاب، وحيداً، وحيداً! ولم يكن وحيداً فحسب، وإنما لم يكن له قِبَلٌ أن يبكي على ما يعاني، وبأن يأسف على ما آلت إليه الأمة.

كانت المنابر تخاتل وتخادع وتزوّر في دنيا الإسلام شرقها وغربها، وكان الزهاد والرواة ـ كعجل السامري الذهبي ـ ينحلون ويزورون؛ فكان القرآن راية للشرك، والمسجد مسجد ضرار. كانت محطاً يشيعون فيه الذل والتخدير. وكانت الجماعة المصلية أضاحي للجهاز الحاكم يصنعها كالأنعام، وشهدت المحاريب مقتل علي والمتشيعين لعلي، وشهدت كذلك بألسنة المصلين ثلب علي ومدح الخليفة. كان بيت محمّد مهجوراً، وكان لسان الحقيقة أبكم، وكان كل شيء قد ديس وتناثر، وكانت الذكريات قد قاربت في صمت مميت النسيان والضياع!

وكان الإمام السجاد فرداً، وحيداً، كبيراً، جريحاً، طافحاً بالألم، غريباً في دياره، عارفاً بكل شيء مبصراً كل شيء، مسؤولاً. إنه إمام. أجل، إمام. إن إنسان الغد في حاجة إلى هذا الأنموذج المعلم الذي كانت له تلك الأحوال، وذلك الضعف والفشل والغربة. ولئن وجد في تاريخ الغد رجل بصير مسؤول طوى الكشح عن ماضٍ له مفعم بالحرقة والدم والخيبة، فكان نصيبه وحشة الوحدة واختلاج الضعف، فإذا هو إزاء حكومة عاتية مسرفة في العتو، فإذا أبصر نفسه وجدها وحيدة غريبة معذبة تكابد الهواجس الموجعة، والذكريات المريرة، وقسر الصمت، وخلو اليد، وانعقال اللسان، وانطباق الشفتين، والرجل مشلولة، والحلقوم في قبضة جلاد متوحش، إنه إذا وجد مثل ذلك المرء وكانت حاله هي هذه فهو برغم هذا كله مسؤول. وهذه الميزة التي يمتاز بها من غيره ليست وليدة القدرة؛ إن هي إلاّ وليدة التحديق والمروءة. ولا بد لهذا الإنسان الوحيد الذي يعايش الجبروت والقمع من أن يعمل! وأي عمل؟ وكيف؟ كان الإمام يريد أن يكون قدوة في العمل في أحوال لا تأذن بأي عمل، بل لا تأذن بميتة جيدة! إذا مات في تلك الأحوال ما كان شهيداً، ولا اتخذ موته سلاحاً. فالشهادة لها أحوال مؤاتية؛ فإذا كانت تلك الأحوال المؤاتية تمكن دم الشهيد من الثورة على الجلادين

فتلك هي، وإلاّ فهي ميتة لا ثمر فيها ولا نفع. وإن يكن فيها نفع فنفع للعدو.

وحياة الإمام السجاد ووجوده ومصيره وصمته ونطقه، قدوة لمثل ذلك الإنسان وذلك الزمان. هو جوابٌ ثبتٌ عن هذا السؤال: أهو مسؤول من كان وحيداً في امبراطورية هيمنت على العالم فخنقت الأنفاس في الصدور؟ فكيف لتلك الأنفاس المخنوقة أن تطالب بحق، وكيف لمن لا نصير له أن يذود عن الآمال والقيم والعقائد والعواطف. فالسيوف التي أبادت، في شرق الأرض وغربها، امبراطوريات عاتية، تقف لتلك الكلمات بالمرصاد؛ فهي أخطر عندها من كلمات تقدح في الإله.

إن الصحيفة هي كتاب الجهاد في الانفراد، والكلام في الصمت، والتأهب في الفشل، والصياح في الخفقان، والتعليم بالشفاه المطبقة، وتسليح من أخذوا سلاحه. برغم هذا كله فالصحيفة هي «كتاب دعاء»!

فالدعاء على حد تعبير الكسيس كارل تجلي «المحبة» و«الفقر». وقد زاد الإسلام على هذين «البصيرة». إلاّ أن الإمام السجّاد قد جعل أركان الدعاء أربعة، إذ هو زاد «فعل الخصائص الإجتماعية» و«التوسل» بها من قبل أهل الحق المغدورين، وأهل العدالة المسؤولين، والمجاهدين المبصرين الذين لا

يجدون سبيلاً إلى نشر العقيدة والدفاع عن الحقيقة، ومناضلة الغاصبين المعتدين على حرية الإنسان وكرامته. فالشيعة حتى في الدعاء يضعون الواجبات الاجتماعية التي عليهم نصب أعينهم. وبالعبارة الموجزة نرى الدعاء في مدرسة الإمام السجاد خير معرض لأعمق البصائر، وأشد المحبة وأحرها، وأرفع الاحتياج وأنظفه. فهي لكل من يتلقى في مدرسة الإمامة، دروس الحياة والقدوة والمثال والتفكير والعمل لسانٌ خلف الشفاه المنطبقة التي تريد التكلم والافصاح.

وكنت قد اخترت نماذجاً من الصحيفة لأدلّ على هذه الأركان الأربعة التي يقوم عليها الدعاء السجادي، إلاّ أن الوقت قد عاجلني. فأنا أشكر الأستاذ مطهّري[١] الذي وهبني

---

(١) تأمل أخي القارىء هذا الخلق الرفيع وما تحمله هذه الكلمات من معاني الإيثار والعرفان، وكيف بادله الشهيد مطهري بمثله ولو اشارة، في حسينية إرشاد كان مطهري وشريعتي جنباً إلى جنب، ويحضر كل واحد منهم مجلس الآخر، وإن اختلفت وجهات النظر حيناً أو تفاوتت أحياناً لكنها ما أفسدت في الود من قضية، فإلى الذين يزايدون اليوم باسم مطهري أو شريعتي حاملين راية التعصب الأعمى، وفي الأغلب هو تعصب ذاتي منشأه ذواتهم المريضة بداء «الأنا» المتخفية بشريعتي تارة وبمطهري تارة أخرى، وإن كان «البعض» قد بدأ حملة مخفية على تراث الشهيد مطهري ـ التنويري ـ خاصة في كتابه المشهور الملحمة الخبيثة بدعوى التصحيح والدفاع عن مطهري، فإذا كان الدفاع عن مفكر بحجم مطهري يقتضي نسف منهجه العلمي في فهم التاريخ والروايات، فلا أدري أي تصحيح يبقى. . . ! «الناشر».

شيئاً من وقت حديثه، وقد أشار الساعةَ إليّ بأن أكمل الكلام؛ فلا يحرجني الوقت، ولا أريد أن أستغل لطفه، فأنا مرجىء تفسير الصحيفة إلى وقت آخر. وربما أتيح لكم رجل أكثر قدرة مني على الكلام في هذا الموضوع. ولئن أسفت، فإنما آسف على أني لم أستطع أن أسهب في هذه الخاصية التي امتازت بها هذه الروح الكبيرة، وهذا الكتاب المعلم الطافح بالفكر والجمال. فلا بد لي في كل حال من الكلام ـ ولو باقتضاب ـ في هذه الخاصية التي طالما أثارتني.

وكنت قد ذكرت أني ما إن بلغت فرنسا في عام ١٩٦٠ لمواصلة تحصيل العلم، حتى رحت أبحث عن كتاب الكسيس كارل في «الدعاء»، وكنت وأنا في إيران قد اهتديت إلى هذا الرجل؛ فقرأت له كتابين مترجمين إلى الفارسية هما: «الإنسان ذلك المجهول» و«طريق الحياة». أما كتاب «الدعاء» فقد هداني إليه صديقي المفكر المهندس كاظم أحمد زاده.

وأول ما عملت في فرنسا أني انصرفت إلى ترجمة هذا الكتاب الصغير الجميل العميق وفي ذلك الوقت عينه عمدت إلى التثبّت في أمر الأدعية الإسلامية، ولا سيما الشيعية؛ فجاء ما كتبته في آخر ذلك الكتاب الذي ترجمته، وابتكرت فيه طريقة مجملة في تفسير الدعاء الشيعي ودراسته: لقد مال أئمة الشيعة وزعماؤهم إلى الدعاء، لأنهم كانوا قد حرموا الكلام

نقداً، وإبلاغاً، ودفاعاً عن العقيدة، فكان هذا الدعاء زاخراً ـ من جراء ما لاقوا من عذاب وانكسار وتنكيل ـ بالألم والشوق والعمق والرمز والكناية والثورة المكتسحة من أجل الحق والعدل.

من أجل ذلك اخترت الصحيفة. فهي خير أنموذج للدعاء الشيعي. فاستنبطت منها شيئاً كثيراً مدهشاً وجديداً. وأنا أرجو أن تتم دراستي في هذا الباب لأتكلم فيه على نحو خاص.

ولست أريد أن أقف بكم على الأسلوب الذي انتهجته في دراستي وتثبتي، بل على هذه الخاصية التي امتازت بها روح الإمام الجميلة اللطيفة. فهذه الويلات التي كانت تصيب الإمام قد جعلته في أتون من النار، فكان الألم يمازج كل كلمة من كلماته، ويخالط كل حركة من حركاته، فصبره على المصائب والواقعات، واحتماله الفجائع، وترويضه نفسه على الثبات والمقاومة، وتجرعه خيانة العدو والصديق، ومعاناته الوحدة المترعة بالألم والحب، وآلاف من الأحاسيس، والأسرار، ومن النجوى التي يشق علينا وصفها، فضلاً عن فهمها، والاحساس بها قد صاغت روحه لطافةً ورقّة وشفافيةً. فميزتها عن غيرها بخصائص رفيعة رائعة.

صحيح أن أئمة الشيعة جميعاً هم «نور واحد» اسْتُقِيَ من منبع واحد، وسلك سبيلاً واحداً لأن المحجّة واحدة. إلاّ أنهم ليسوا سواء في الفعل الاجتماعي، وفي التكوين؛ إنهم ليسوا تكراراً لبعضهم بعضاً.

وعندما قال الإمام علي عليه السلام، وهو أول الأئمة وأكمل أنموذج لهذه المدرسة، في ولديه الكبيرين وكلاهما إمام: «لقد وهبت حلمي للحسن، وشجاعتي للحسين». كان معنى ذلك أن هذين الإمامين اللذين سبيلهما واحد، ومحجتهما واحدة، يمتاز كل منهما بخصائص معينة، وإن رأيناها في الآخرين فقد اتسم بها أحد الناس اتساماً. وكذلك هو شأن الأنبياء[1]. وهذه الخصائص المميزة تنطوي على حكمة عميقة، فمع ان الأئمة طريقهم واحد ومحجتهم واحدة، فإن الزمان الذي عاشوا فيه متباين، والأحوال التي عاشروها متفاوتة؛ فلا بد من أن يبلّغوا رسالتهم على أنحاء مختلفة. لذلك كانت هذه الخصائص تناسب تماماً ما كان يقوم به الإمام من جهاد متواصل. ومن نافلة القول ان الإمام السجاد، الذي لقّبوه بـ«زين العابدين»، قد امتاز بأَرَقّ الأحاسيس وألطف المشاعر، فإذا نطق كان نطقه

(١) وفضلاً عن هذه الحقائق التاريخية نجد للأنبياء والأئمة في الأدعية والزيارات خصائص تميز بها كل منهم عن سواه. و(زيارة وارث) نموذج ذلك (شريعتي).

رقيقاً، وإذا عمد إلى الفعل كان فعله لطيفاً.

ولقد رووا أنه قد تعوّد في كل عام قبل أن يأتي الحج بأن يخرج من المدينة، التي كانت كلها تعرفه وتحترمه، إلى قوافل الحجّ الآتية من مكان قصّي، ليعمل في تلك القوافل عاملاً مجهولاً وخادماً غير معروف. فهو يسير معها إلى مكّة. كان يعمل في هذه القوافل بلا رياء ولا مداهنة، ليأكل جهد عمله، وليحج برزق عمله. فإنما كان يسعى إلى أن يحجّ خاشعاً لله لا يرى فرقاً بين عباده. ورووا أن واحداً من هؤلاء الحجاج المرائين المنافقين الذين يتوسلون بالحج إلى كسب الجاه، واللقب، والامتياز، قد خاشن الإمام في ما أمره به فأهانه وحقره. فما صدر من الإمام إلاّ ما يصدر من الخادم الحق من مسامحة ولين وتواضع، وإذ رجع الإمام إلى تلبية أمره ألفى رجلاً ـ كان قد شهد حملة الحج ـ على الإمام يحدّق فيه، فإذا هو يعرفه، وإذا هو يعلن للناس أن هذا هو زين العابدين، وإذا الناس يجتمعون حوله معتذرين، خجلين، مستغفرين، معظمين، مقدسين؛ فإذا الإمام يخفي نفسه عن العيون، لأنه يريد أن يريح نفسه من عذاب المجاملة والتجليل. فما هي إلاّ أن يقصد الإمام قافلة أخرى ليخدم فيها، فيحس بما عليه من الحج. ولقد تأملت في ما فعلت في الصحيفة فجمّعت الضمائر

التي كان الإمام يطلب بها من الله شيئاً، والتي كان يناجي بها ربّه:

«أنا ـ نحن ـ هم». تلك هي الإرادة، ولهجتها، ومقدمتها. ولقد سجلت الخصائص التي احتواها دعاء السجّاد لله من أجل أحد الناس، أو كل الناس:

فأما الخاصيّة الأولى، فهي أن الداعي إذا دعا لنفسه جاء بضمير المتكلم «أنا»، وإذا دعا لقوم هو منهم جاء بالضمير «نحن»، وإذا دعا لقوم كان منهم أم لم يكن جاء بالضمير «هم»، لأنه يختص بهذا الدعاء غيره ويستثني منه نفسه.

وأمّا الثانية، فهي أن الداعي قبل أن يريد شيئاً أو يطلب شيئاً يأخذ في ذكر صفاته عز وجل، بحيث يناسب هذا الذكر المراد؛ فإذا كان المراد يسر أيام عسيرة فيها الجوع والضيق، ذكر من صفاته الكرم والرزق، وإذا كان المراد عفواً وغفراناً وإنقاذاً من شدة، ذكر من صفاته الرحمة والعفو والغفران.

وإذا كان الدعاء لشخص هو الداعي، أو كان الآخرون هم الداعين له، فإن الدعاء يسلك هذا المسلك في ذكر صفاته تعالى تمهيداً. وقد يكون المراد شيئاً كثيراً إلاّ أنه ينقسم على ثلاثة أقسام:

فأما القسم الأول، فهو العفو عن الذنب، حيث يعمد الداعي إلى وصف نفسه بأنه عاجز ملوّث غارق في الذنب لا يستحق عدلاً من الله وعفواً، ثم يعمد إلى طلب الترحم عليه، فالعفو عنه لأنه ضعيف.

وأما القسم الثاني، فهو الأمل، وهو الافتقار إلى الهدى والارشاد والعناية الإلهية.

وأما القسم الثالث، فهو إرادة الخير والرحمة، واللطف والعون، والعز والثروة، والتوفيق والنعمة، والقوة والعافية في هذه الحياة، وإرادة الرحمة والمحبة واللطف في تلك الحياة.

والعجيب أن الصحيفة متى نطقت بالدعاء للعبد العاجز، الضعيف المذنب المتبع هواه، أن ينجو من العقاب والغضب، جاءت بالضمير «أنا»! فكأن الإمام السجاد يتحدث عن نفسه.

وعندما يكون الدعاء للذين هم في حاجة إلى عنايته وكرمه يأتي بالضمير «نحن»، فإنه يريد العناية والكرم للناس جميعاً، فيضع نفسه في صفوفهم.

وأما الخاصّية الثالثة التي يستعمل فيها الضمير «هم»، فإنما تخص المسلمين المجاهدين الأطهار، والذائدين عن الحدود، الذين يدعو لهم بالخير والبركة والعز والتوفيق. إنه يريد هذا كله للناس كلهم، فلا يدخل نفسه في صفوفهم. فإنما

يرى أن عليه ـ وهو الذي لا يرى نفسه جديراً بالدعاء ـ أن يدعو لهم اعترافاً منه بفضلهم!

ولقد قيل في قيم الدعاء المعجزة شيء كثير، وفي المستطاع أن يقال فيها شيء كثير أيضاً. قال الكسيس كارل: «إن العقل يغدو كسيحاً حيث المحبة في الطريق. إنه ليبدو أن الدعاء يبلغ في تحليق المحبة أعلى قمم التعبير المنشّطة من عقالات العقل الحالكة».

وقال أيضاً: «ما من أمة في التاريخ كتب عليها الاندثار التام. اللّهم إلاّ إذا كانت قد هيأت نفسها للموت بالضرب عن الدعاء صفحاً».

وقال أيضاً: «يبدو لي أن الدعاء إذا كان صادقاً، حاراً، مخلصاً، نال الداعي ما يريد؛ فأيّ باب يطرق ينفتح له».

وقال أيضاً: «للدعاء أعمق الأثر في روح الإنسان وفطرته، إنه ينضجه وينميه إلى حد أن يضيق كيانه بأثر البيئة والوراثة».

وتذيع مؤسسة لورد الطبية في كل عام إحصاءً يتضمن أسماء المرضى الذين عجز الطب عن معالجتهم. فلاذوا بـ«لورد»، فوجدوا عندها الشفاء بقوة الدعاء الخارقة.

وقد نحسب الكلام عن طباب الدعاء لغواً. فقليلة هي العائلات التي تعتمده، وتجربه تجربة آمن بها كل قوم إيماناً مماثلاً.

وعلى أنني أقر للدعاء بالأثر العجيب، وأؤمن به الإيمان القوي، إلاّ أنني أقلّ منكم جميعاً حظاً من فعله، ودونكم جميعاً نصيباً من فعله؛ غير أنني قد لمست قدرة الدعاء الخارقة في حياتي الروحية. وفي كتابي «الصحراء» قد تكلمت في فصل «المعبد» عن إعجازه: «وإذ لم يقع ما هو مقدر، وإذ يعجز التدبير عن التدبير، نستطيع أن نجمع كل ما في الروح من قوى، وكل ما في الصميم من طاقة؛ فإذا تجلت الطاقة والقوى، فصغنا وجودنا كله إرادة ورجاء خالصاً، ثم إذا أردنا في هجوم صادق آمل مؤمن، وجدنا جواب المراد».

«إن الإيمان «يخلق» القويّ. إذا نحن لم نملك مفتاح باب مغلق، وإذا عجز ذكاؤنا وحيلتنا عن فتحه، فإن هجومنا الطافح بالقوة والمحبة واليقين والاخلاص، والمتسم بالشدة والأمر، يفتح لنا ما أغلق دوننا. إذا ما المحبة يوماً أمرت، قال المحال: سمعاً وطاعة»[١].

قلت ان الدعاء هو تجلي الفقر والمحبة، وفي مثل هذه

---

(١) الصحراء (كوير)، فصل المعبد. ص٢٠٤

الحال يتاح للداعي أن يصفّي نفسه من الحياة المألوفة، الممزوجة بالحقارة والوضاعة، فتغدو نفسه مرآة صافية لا تعكس غير الكبير والبعيد من الأهداف والأشواق، ومن الحاجات والرغبات الإنسانية التي كانت رفيعة فغطتها حياة المادة بالرماد. فإذا هو ينشط يوماً بعد يوم من عقالات تافهة لينضم إلى الأبد والمطلق والخلود، وإلى ما وراء المنظور والمحسوس. وإذا هو يلتحق بقوة الإرادة الرفيعة، المحبة الخالصة في شرفة الوجود التي يصعد منها إلى الأعالي، فتكون له تجربة التصعيد.

ويعلّم الدعاء الإسلامي فضلاً عن الفقر والمحبة الحكمة. إنه يغذّي فضلاً عن الحس والحاجة العقل؛ فيمنح البصيرة والمعرفة والشعور.

وفي الدعاء الشيعي ركن رابع هو «الجهاد». وهو الركن الذي يرى الإنسان مسؤولاً عن مصير الناس بإزاء الظلم والتفرقة والاستبداد والاستلاب. فهو اللسان الناطق عن الحق والذائد عنه، لأن إيمانه قائم على أصالة القيادة والعدالة.

ويحافظ الدعاء الشيعي على الشعائر الإنسانية؛ والأهداف الاجتماعية، وواجبات القوم الذين يرتبط بهم الداعي؛ فإذا هي طرية أبداً، حية دائماً، تسري فيها الحرارة

باستمرار. إذ لا قبل للحكومات الطاغية والخلافات العاتية بإبادتها وتضييعها، ذلك أن هذا الدعاء يلقن الناس في العشيّ والإبكار خير تلقين وأعمقه وأحره.

وقد أوصلتني دراستي في الصحيفة إلى تلك الوجهة من دعاء الإمام التي تكلمت عنها. وعلى أنها تبدو في الظاهر وجهة خلقية لطيفة ولكنها تبعث على العجب والدهشة كلما تأملتها؛ فهي تكشف عن أجمل روح متعبدة، وعن إمام لا مغرور، ولا جباراً بل سجاد، ولا خاقاناً أو متألهاً أو متزعماً يخضع العباد لمشيئته بل كلُّه جمال وكمال. كم فيه من صفات الإله؟! كم فيه من جمال الروح وصفاء النفس؟! كم فيه من الإخلاص والإيثار، والمحبة والكرامة، والجلال والتواضع، واللين ورقة الفكر، والخير وشبوب العاطفة؟!.

ولقد تأملته وهو يناجي ربه في خلواته المكتظة بالألم والحب والشوق، فأدركت أنه لم يتكلف الدعاء، ولم يصطنعه، ولم يعده، ولم يهيىء له نفسه؛ وإنما كان هذا الدعاء يتدفق من فطرته أراد أم لم يرد. أجل، إن فطرته هي التي تتدفق بلطافة الروح، والعظمة، والمحبة، والأدب. لم يفعل خيراً؛ إنما الخير هو. ليست المحبة والإيثار، وحب الخير والسعادة، والاخلاص والتفاني من أجل الناس من

صفاته أو من الواجبات عليه، ماذا أقول؟ إن هذا كله هو وجوده!

لا شيء الآن من كلّ الذي قيل في الدعاء وقلنا. نحن في عصر إخشوشن فيه كل شيء؛ ألا ترون الحضارة والعلم والصناعة والفلسفة والأخلاق والفن والأدب كيف اصطبغت بوحشية الإنسان؟ ألا ترون الأنظمة كيف تقسر الإنسان على أن يغدو «كركدنا» بقرنين حادتين أو «مسخا»؟!.

ومهما يكن من شيء فإننا نرى كل شيء في التاريخ يسرع إلى عبادة الذات، والمنفعة، وإلى استعباد الناس، فالناس في زحف موصول نحو اللذة والمنفعة، أي نحو التباعد والانفراد، كيما يكونوا سجناء انفرادهم؛ فإذا القسوة، والخشونة، والظلم، والفجائع، والنفاق، والمخاتلة، والحرب، والبرد، والجفاف، وخمود العاطفة تأتي في نفس الإنسان على الأصالة، والفداء، والإيثار، والغفران، والتقوى، والتضحية. ولئن كانت معجزة الدعاء تنحصر في أنها تلطف الروح وتجملها، وتصير بالعاطفة إلى ما تجوز به حدود الأثرة، وتمنح القلب جلالاً فإن الدعاء حريّ بكل تقديس. ولو لم يكن ينطق أي لسان بقيمة الدعاء، فما نطقت بقيمته إلا الكلمات التي تألفت منها الصحيفة، ولو لم نجد لتلك

الكلمات أثراً أو رسماً إلاّ في الروح التي صاغتها، لكان حسبنا أن يراه الإنسان البصير من أقوى الأسباب في تلطيف الروح وتكاملها، ومن المعجزات في التربية الإنسانية. فالروح المتوحشة المتحجرة تحتاج إليه على قدر حاجة الروح الأنيسة اللطيفة التي تفهم معنى المحبة، وجمال الدمع، والتي تحارب، والتي تعلم أن خضوعها لله لا يقلل من قيمتها، ولكن يزيدها قيمة.

خاتمة

اعتزمت في نهاية هذا الحديث أن أجيء، بعد الكلام عن فلسفة الدعاء ـ ولا سيما عن فعل الدعاء الاجتماعي الشيعي، ومناهضته الظلم والطغيان ـ بنماذج من الصحيفة أعقب عليها القول، فلم يتح لي ذلك.

وقد ذكرت أني عندما كنت عاكفاً بفرنسا على ترجمة كتاب «الدعاء» للبروفسور كارل اخترعت وسيلة إلى تفسير الدعاء الإسلامي وتقويمه، فخطوت في هذا السبيل خطوات تلاحظونها في آخر تلك الترجمة. إلاّ أنني لم أجد من الوقت سعة تتيح لي بلوغ الإرب[1].

---

(١) ومهما يكن من شأن الأستاذ العلامة المهندس بازركان في دراسة الدعاء دراسة محللة عميقة معتمدة على النصوص الأساس، أقول مهما يكن من شأن تلك الدراسة التي ضمت إلى الترجمة الفارسية لكتاب كارل في الدعاء، والتي عوضت إلى حد كبير من النقص الذي لاحظه المفكرون المسلمون في كتاب كارل، فإن عملاً من هذا القبيل، لما يبلغ النهاية بعد، فثمة خطوات كثيرة تنتظر من ينذر النفس لها. (شريعتي).

وكنت أتمنى لو أتيح لي أن أوازن بين الأدعية الإسلامية، ولا سيما الشيعية، التي امتاز الشيعة بها، والأدعية المسيحية والمجوسية واليهودية فما وفقت لما تمنيت!

ولئن استطاع هذا الحديث أن يكون دعوة إلى الأصدقاء والمؤيدين والمحققين، ليفعلوا في هذا السبيل ما لم أوفق لفعله، لقد كان ذلك شفاء نفسي، وكان إلى ذلك تنزيهاً للدعاء عما يضيفه إليه المفكرون الصغار، وكان إلى هذا كله إصلاح سنة الدعاء الحقة الحية بين ما لدينا من متقدسين، وكان بعد ذلك جميعاً خطوة في سبيل تسديد النظر المنحرف إلى الدعاء الذي كان انحرافه علّة التخدير، والانفلات من القيم الاجتماعية. ولئن رجح القول أن نظرة العوام إلى الدعاء تتمخض عن السيّىء والمسيء، فإن الجهد في إيقاظ الروح القوية المقوية التي ينطوي عليها الدعاء الإسلامي، والجهد في تحليله وتفسيره وتشذيبه، أقول ان الجهد هذا في الدعاء الشيعي، الذي كان الشيعة يعلمونه وبه يفكرون وينطقون ويحاربون، هو جهد مثمر نافع يكمل الجهود التي بذلها المفكرون الممتازون، الذين كانوا يجتهدون في تبصير الناس، وتشخيص التخدير والانحراف والتملص من الواجب.

وإنكم لتجدون في نهاية هذا الحديث دعاء يصور «الفقر والمحبة»، أو يصور أسراري وحاجاتي وتأملاتي في خلواتي،

مثلما يصور آمالي واختلاجاتي وآلامي ومرادي من الله! .

تقولون: وما للناس ولهذا؟!

فأقول اني لم أذكر الله في هذا المقام ليطعم أهل بيتي، أو ليترحم على أمواتي، أو ليفي ديوني، أو ليستجيب لرغباتي وحبي وبغضي، فإن هو إلاّ دعاء كان تجلياً للأفكار والأحاسيس والآلام، والعقد والعقائد والآمال والأماني، والمطالب والغضب والنفور، والوحدة وخيبة الروح التي هي ضحية الزمان، ومطعن العدو والصديق، وسجينة القسر والإغراء والتزوير، وحبيسة القاسطين والمارقين والناكثين، والتي لا حول لها ولا قوة، ولا اختيار في ميتة جيدة! فإذا أنا متجه إلى الله بقلب مترع بالحب، وروح طافحة بالأمل، ورأس فائض بالأشواق، وكف خالية، ورجل ماشية، وكاهل يحمل الأمانة، ووجهة هي الموت. وهذا هو مخاض خلوتي يحكي الألم والمصيبة والعطش والحاجة. فهو دعاء، إنه دعاء روحي.

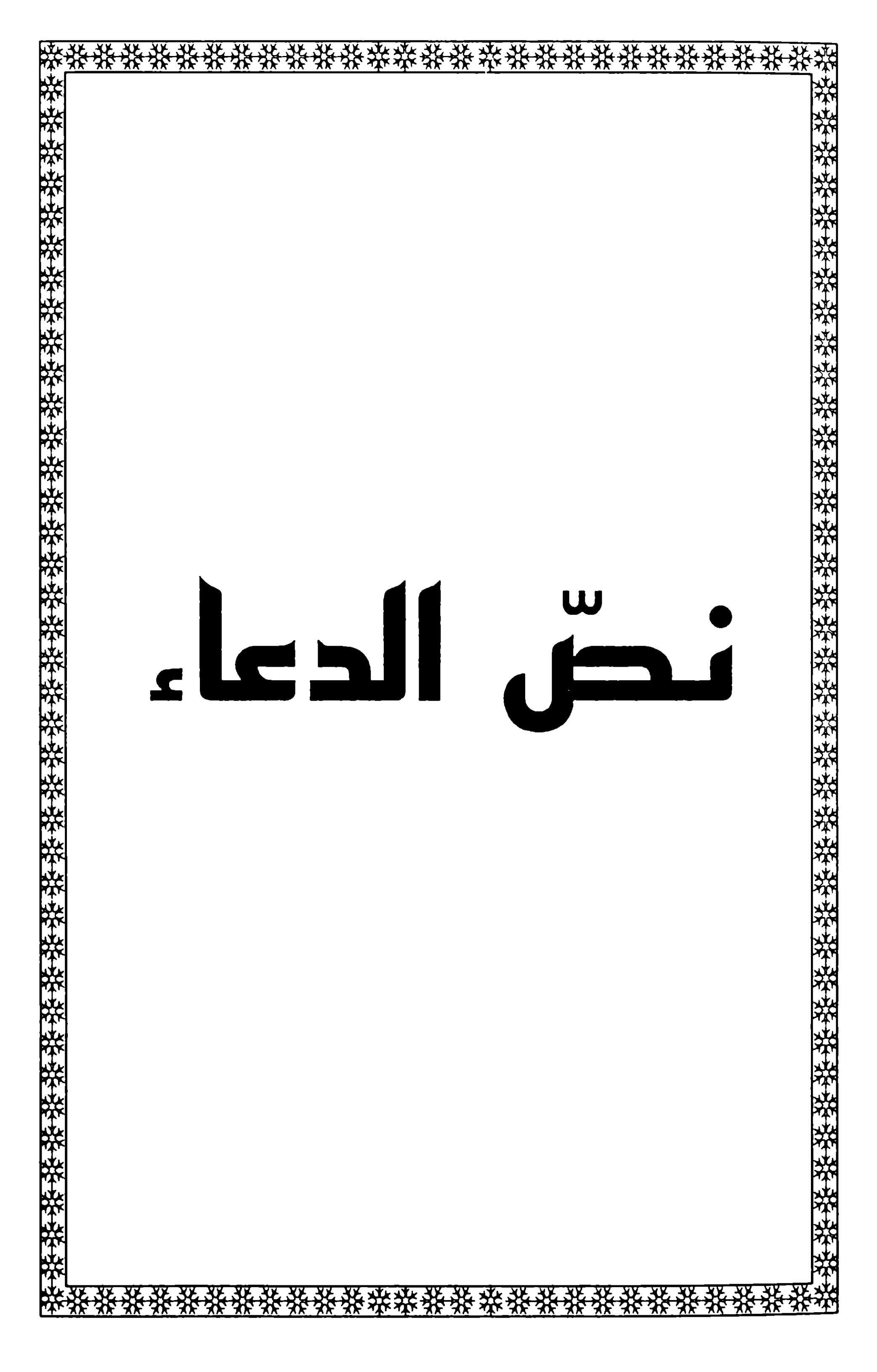
ولكن هذه الـ«أنا» ليست أناي؛ إنها زماني وإخواني الذين تتعذب أرواحهم. فإذا كانت الـ«أنا» في هذا الدعاء فلأنني أردت تقريبها من تلك «الروح» التي هي «أجمل روح متعبدة» وأعجب روح داعية جعلت معبد الدعاء مقلع المعراج، ومنطلق الجهاد.

وفي الروايات، كما في قول كارل، أن لا بد للدعاء من أن يكون كمكالمة الطفل أباه. وكلما كان الدعاء جريئاً مصراً مطالباً، كانت الاستجابة له أقرب.

ولقد حبّرت ما يقرب من نصف هذا الدعاء قبل ثلاث سنين أناغي به نفسي، والنصف الباقي هو ما قلته في هذا الحديث، وقد ضممت ذاك إلى هذا كيما يغدو دعاءً يمثلني، ويمثل أبناء هذا الزمان وهذا المكان. أوليست جذور الدعاء في الحاجات؟ أوليس الدعاء في الإسلام، وفي التشيع خاصة، نوعاً من الكلام؟ أفليس للإنسان أن يدعو بلسانه ويناضل بألفاظه؟ أوليس للسان أن يدعو؟ وإذن فللقلم أن يسجّل الدعاء.

في مستطاع أيٍّ كان أن يناجي ربه، فيقف به على مراده واحتياجه بلسانه، أو بأي لسان! إننا في حرج يا أصحابي، وإن أملي فيكم يا شباب الغد لعظيم عظيم.

إن الذين بلغوا منزلةً ما، هم أولو علم ومقام ومال ورتبة، وليسوا بمسؤولين عن الدفاع عما لم يتح لهم، ولم يحصلوا عليه. أما أنتم الذين ما زلتم في نعمة الحرمان فتستطيعون أن تحموا ما يضيع ويهمل، من الضياع والاهمال.



نصّ الدعاء

إلهي: صن «عقيدتي» من «عقدتي».

إلهي: مكّني من احتمال العقيدة «المخالفة».

إلهي: لا تحرم نمو عقلي وعلمي فضيلة «التعصب» و«الاحساس» و«الاشراق».

إلهي: فلأكن أبداً بصيراً ذكياً؛ كي لا أقضي في أحد، أو في مسألة قبل أن أعرف «الصحيح» و«الخطأ».

إلهي: لا يكن لجهلي الأثر[١] الحاسد قدرة على أن يجعلني أداة في يد العدو للهجوم على الصديق.

إلهي: لا تفد بـ(أناي) التي أريد «أناي» التي يريدون.

إلهي: لا تخلط عليّ الاختلاف في «المروءة»، والاختلاف في «الفكر»، والاختلاف في «العلاقة»؛

---

(١) بكسر الثاء.

لكي لا أعمى عن فهم هذا الأقنوم المنفصل بعضه عن بعض.

إلهي: لا تجعلني بالحسد والحقد والفرض جلواز الظالمين.

إلهي: اقتل الأثرة في نفسي أو انتزعها؛ كي لا أحس بأثرة الآخرين، فلا أتعذب.

إلهي: هبني إيمان «الطاعة المطلقة»؛ لكي أكون في عالم «العصيان المطلق».

إلهي: علمني (تقوى الجهاد)، فلا أضيق بازدحام الواجبات، واحمني من (تقوى الاحتياط) فلا أنضب في العزلة.

إلهي: لا تورطني في سفه النعيم. هبني من لدنك الاعتمال الكبير، والهم العظيم، والدهشة الفياضة. هب عبادك الحقيرين اللذة، أما أنا فهبني الآلام العزيزة عليّ.

إلهي: لا تضع فكري وإحساسي حيث أفطن

للشطارات البليدة، والحقارات المؤذية التي تصدر من الرجال الصغار؛ فأنا أؤثر أن أكون «كبيراً مخدوعاً» على أن أكون «صغيراً خادعاً».

إلهي: حررني من سجون الإنسان الأربعة الكبيرة: «الطبيعة» و«التاريخ» و«المجتمع» و«الذات»؛ كيما أكون كما خلقتني، خالق نفسي، لا حيواناً يلائم بينه وبين البيئة.

إلهي: أجّجّ نار «الشك» المقدسة فيّ؛ حتى إذا أتت على كل «يقين» نقشوه فيّ، أشرقت البسمة الحنون راسمة على شفتي فجر اليقين الذي لا ذرة غبار عليه.

إلهي: لا تُحجني إلى الترجمة والتقليد.؛ فأنا أريد أن أحطم قوالب الوراثة لأثبت لقوالب الغرب، وليخرس هؤلاء وهؤلاء[1]؛ فأنا وحدي أريد أن أتكلم!

---

(١) المتحجّرين والمتغرّبين.

إلهي: خذ من شعبي القناعة والصبر والاذعان ووفّر عليّ ما تأخذه من شعبي.

إلهي: ألا حطّم، يا إلهي، هذا العقل اللئيم الذي لا يعرف غير المنفعة، والذي يقيد جناحيّ في هجرتهما، من الوجود إلى المعراج الذي ينبغي أن أكون فيه. ألا حطّمه بشعلة الشوق التي تلتهب في داخلي!

إلهي: صفّني من صداقات الأرواح الحقيرة وعداواتها في حماية الأرواح العظيمة التي في أعلاها روح علي.

إلهي: أحمدك، كما حمدك ابن الحسين بن علي، على أنك جعلت أعدائي حمقى. هي نعمة من لدنك تهبها عبادك المقربين.

إلهي: لا تجعلني مراد المغفلين والتافهين.

إلهي: زدني إرادة، وعلماً، وتمرداً، وغنى، وحيرة، ووحدة، وفداء، ولطافة روح.

إلهي: ساعدني لأقيم مجتمعي على هذه القواعد الثلاث: الكتاب، والميزان، والحديد. اللهم اجعل قلبي فيّاضاً بالحق والخير والجمال.

إلهي: ذكرني أبداً بما ألهمت به «روسو»[1]:

«إن أكن عدوك وعدو عقيدتك فإني أفدي النفس لأجل حريتك ولأجل عقيدتك».

إلهي: اشف «مجتمعي» من داء التصوف، ليعود إلى الحياة و«الواقع». واشفني من سفه الحياة وداء «الواقعية»، لكي أبلغ الكمال، وحرية العرفان.

إلهي: علّم المفكرين الذين يرون الاقتصاد «أصلاً»، أن الاقتصاد ليس هو «الهدف». وعلّم المتدينين الذين يرون «الكمال» هو الهدف، أن الاقتصاد «أصل» أيضاً.

(١) **روسو**: جان جاك روسو: (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف اجتماعي فرنسي نادى بطيبة الإنسان وبالعودة إلى الطبيعة وان الحضارة ولّدت التعاسة وساعدت على تفسخ القيم، تأثرت بمبادئه الثورة الفرنسية والأب الرومنطيقي. «الناشر».

إلهي: لتكن هذه العبارة التي أجريتها على لسان دوستويفسكي[١] في قلوب المفكرين: «إذا لم يكن الله فكل شيء «مجاز». فالعالم يغدو بلا معنى، والحياة بلا هدف، والإنسان تافهاً لا معنى له، ولا هو مسؤولاً عن شيء».

إلهي: قوّني بـ«الفقر» و«الزهد» إزاء ما يفسد المروءة.

إلهي: لا تورطني لحظة في موجودات تتردد ولو قليلاً في ترجيح «العظمة» و«العصيان» و«العذاب»، على «الرفاه» و«الاطمئنان» و«اللذة».

إلهي: علّم من تحب:

المحبة أحسن من المعيشة.

وعلِّم من تحبه أكثر:

---

(١) **دوستويفسكي**: فيدور دوستويفسكي: (١٨٢١ ـ ١٨٨١) كاتب وروائي روسي كان له تأثير عظيم في الحركة الفكرية الروسية، رواياته امتازت بالتحليل الأخلاقي النفسي. «الناشر».

التفاني أفضل من الحب[١]!

إلهي: وفقني للمحاولة في الفشل.

وللصبر في اليأس.

وللسير بلا رفيق.

وللجهاد بلا سلاح.

وللعمل بلا جزاء.

وللفداء في صمت.

وللدين بلا دنيا وبلا عوام.

وللعظمة بلا شهرة.

وللخدمة بلا خبز.

وللإيمان بلا رياء.

وللخير بلا نفاق.

---

(١) كون المحبة؛ هي وجدان آخر، تفيض به الذات، بينما التفاني هو: وجدان + تضحية تتحرك بها الذات.

وللشجاعة في نضج.

وللمناعة بلا غرور.

وللعشق بلا هوس.

وللوحدة بين الناس.

وللمحبة من غير أن يعلم المحبوب.

إلهي: لا تنعم عليّ بفضائل لا تنفع الناس! ولا تبتلني بجهالة المعرفة، المتوحشة، المزخرفة، التي تسلبني الحس الرفيع، والانتقال إلى البعيد البعيد، والتحديق في ما انطوى عليه الجوع، وزرقة الجلد التي نقشتها السياط.

إلهي: وفق القديسين الكبار الذين لاذوا بعزلة التعبد المطهرة، أو بعزلة العلم والفن، كيما ينحروا نفوسهم. لكي لا تضيق طبيعة الله الواسعة بأي موجود ـ عدا هؤلاء ـ ذي معنى، ولكي لا يضيق العالم الحي بأي ذرة ـ خلا هؤلاء الطفيليين، ـ ولكي لا يضيق

هذا التنسيق البديع في الخلق بأي مخلوق، إلاّ هؤلاء القديسين المجوّفين أو المجوّفين المتقدسين، هو نسق، ولكي لا يضيق مكان بحشرة من الحشرات تعرف لماذا تحيا. فلا يبقى في الخلق أثر للعبث والتفاهة، إذ لا خطأ في الكون.

إلهي: قل لسارتر: إذا صنعت ملاك الخير كما أريد فما معنى «نية الخير» التي هي ملاك الأخلاق؟

إلهي: قل للماديين: ان الإنسان ليس بشجرة تحيا عن غير وعي منها في الطبيعة والتاريخ والمجتمع.

إلهي: علم مجتمعي أن السبيل إليك إنما يكون من الأرض. واهدني يا إلهي، إلى السبيل الذي يختصر المسافات.

إلهي: لقن المتدينين:

إن الإنسان من تراب، وإنه ظاهرة من مادة تفسر الله بقدر تفسير ظاهرة من غيب، فله في الدنيا وجود يساوي وجوده في الآخرة. لقّنهم أن الدين إن لم يسبق

الموت، فلا معنى له، ولا فائدة فيه بعد الموت.

إلهي: من هو الكافر؟ من هو المسلم؟ من هو الشيعي؟ من هو السني؟ ما هي الحدود التي تعين كلا منهم.

إني أتمنى أن يأتي ذلك اليوم الذي يرقى فيه الشعور والمعرفة بهذا البلد الشيعي الوحيد[١]، إلى حد أن يأخذ «المتحدث الرسمي باسم ديننا» علياً كما وصفه المسيحي جورج جرداق[٢]، وأهل البيت كما وصفهم ماسينيون[٣]، وأبا ذر الغفاري[٤] كما وصفه الكاتب المصري عبد الحميد جودت السحّار[٥]،

---

(١) ويعني به إيران.
(٢) **جورج جرداق**: مفكّر وأديب لبناني.
(٣) **ماسينيون**: لويس (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) مستشرق فرنسي عني بالصوفية واهتمّ بنشر مؤلفات الحلاّج، ترك مؤلفات هامة في الشؤون الإسلامية.
(٤) **أبو ذر الغفاري**: (جُندب بن جُنادة) (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م): صحابي من أقدم المؤمنين اشتهر بتقواه وتقشفه وجرأته، وثورته على أول انحراف في الاسلام.
(٥) **عبد الحميد جودت السحّار**: كاتب وأديب مصري.

والقرآن كما ترجمه بلاشر[1] قسيس الكنيسة «الرسمي»، ونبينا كما وصفه ردنسن المحقق اليهودي. مثلما أتمنى أن يصير الشيعة وأنصار آل البيت والقيمون «الرسميون» على «الولاية» في يوم من الأيام إلى ترجمة آثار هؤلاء الكفار «الرسميين».

وهؤلاء الذين يرون الحسين، وهو حامل راية التاريخ الحمراء ونموذج الإعجاز البشري، عاجزاً متأوهاً ما إن دنا منه الموت حتى أخذ يسترحم الجلاد أن يسقيه الماء. وهؤلاء الذين يرون علياً، وهو رمز الشرف والكرامة والحرمة، الذي كان لسانه كسيفه قاطعاً، رجلاً ضعيفاً، خائفاً، مرتجفاً، ما إن شعر بالخوف حتى بايع الظالمين، ودان للغاصبين بالخلافة، واقتدى «به». وبات، حرصاً منه على نفسه، عضواً في شورى جائرة، وتنازل لغيره ـ وهو

(١) بلاشر: (ذرجيس) (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣) مستشرق فرنسي، أستاذ الفلسفة العربية في السوربون ومدير معهد الدراسات الإسلامية في باريس. من آثاره: «تاريخ الآداب ـربية» وترجمة القرآن. «الناشر».

الحري والأمين ـ عن الخلافة. نعم إنه ما إن شعر بالخوف حتى زوج ابنته «الآخر» الذي أوجد الغصب. وهؤلاء الذين يرون فاطمة التي قال فيها الرسول أنها إحدى أربعة من نساء التاريخ الممتازات، والتي هي قبلة نساء العالمين، والتي كان الرسول نفسه يقبل يدها باحترام، والتي كانت من عليّ حليلة وخليلة، والتي كانت بنت رسول الله، والتي أنشأت الحسين وزينب؛ هؤلاء الذين يرونها ناحبة، نادبة، متأوهة، باكية على ضلعها، وعلى أرض لها صادرتها عليها الحكومة. وهؤلاء الذين يرون زينب، التي ما إن رأت أخاها الحسين يهاجر إلى الموت ليعلن ثورته المباركة، حتى طلقت زوجها كيما تكون حرة في سبيل الجهاد والأسر، والتي إذا سقط شهيد رثته وبكت عليه، والتي عندما استشهد ولداها ما بكت، ولا رثت، ولا ندبت، والتي كانت في عودتها، وهي مصفدة، تنادي مثلما كان عليّ ينادي، فيهز نداؤها قصور الجلادين، والأرض التي يمشي عليها الطغاة؛ إن هؤلاء الذين يرونها نواحة على موت أخيها لا غير. وهؤلاء الذين يرون ضرغام

الغاضرية الذي تلتهب الحماسة عندما تراه، والذي تقطر سحنته مروءة ورجولة، بطلاً من أبطال حفلات النساء، وصدر الموائد الحمقاء. أهم شيعة، شيعة علي؟ أهم أتباع آل البيت؟ أهم الأمة التي عرفت وحدها سبيل الحق؟ أهم الأمة التي عرفت وحدها علياً وآله وهم من السنة ومنبع الحقيقة، من هم؟

والدكتورة الكاتبة بنت الشاطىء[1] التي أنفقت عمرها في خدمة نساء آل البيت، والتي هي القائلة أنها تحيا في هذا البيت، أهي سنية؟

وأما بلاشر الكاهن المسيحي، الذي أنفق أربعين عاماً في ترجمة القرآن حتى كف بصره في آياته، وأما ماسينيون، الذي كان بحراً من العلم، أنفق سبعة وعشرين عاماً في دراسة سلمان مؤسس التاريخ الشيعي بإيران، والذي كان في تلك الأعوام يبحث وينقب في الآثار، ما كان منها عربياً وفارسياً وتركياً

---

(١) بنت الشاطىء: عائشة عبد الرحمن (١٩٢٦ ـ   ) أديبة مصرية ولدت في بيت علم ودين. أستاذة جامعية للآداب العربية والدراسات القرآنية. «الناشر».

ولاتينياً ومغولياً، ليهتدي إلى حياة فاطمة، وتأثيرها بعد وفاتها في تاريخ الأمم. حتى إذا صار الكلام عن فاطمة، والعرفان الإسلامي، وسلمان اشتعل كيانه اشتعالاً؛ أما هؤلاء أفهم الكفّار!

إلهي: قل لي كيف ترى الأمر؟ كيف تقضي؟

ألعلَّ محبة الأسماء هي تشيّع؟

أم التشيّع معرفة المسمى؟

أم هو فوق كل شيء اقتفاء الآثار؟

إلـهي: هـبـني حيـاة لا آسـف، إذ يـدنـو مـني الموت، على لحظة فيها غير مثمرة. وهبني موتاً لا أحزن على عبثه.

ذرني أصطفي أنا ذلك، على أن ترتضيه أنت.

إلهي: علمني كيف أحيا، أما كيف أموت فإني سأعرفه.

إلهي: ا.تمني من هذه الغباوة التي عمت الناس جميعاً؛ فكانت مرضاً إذا لم يصب به إنسان كان

مريضاً. احمني من «المصالح والمنافع» كي لا أذبح الحقيقة في مذبح الشريعة[١].

إلهي: لا تجعل إيماني بالإسلام، ومحبتي آل الرسول كإيمان المتاجرين بالدين، وبالتعصب، وبالرجعية؛ كي لا يأسر رضى العوام حريتي، وكي لا يدفن ديني خلف «محل ديني»، وكي لا تصوغني العوام مقلِّداً للذين يُقلِّدونني؛ فأسلم من كتمان ما أراه حقاً لأنهم لا يستحسنونه!

إلهي: أنا أعلم أن إسلام رسولك قد بدأ بـ«لا». مثلما أعلم أن تشيّع وليك قد بدأ بـ«لا» أيضاً[٢].

اجعلني يا باعث محمّد، ويا حبيب علي، بـ«اسلام نعم» وبـ«تشيّع نعم» كافراً!

إلهي: ذكرني أبداً بالواجب عـ ، الكينو ة الشيعية. وهل تلك الكينونة إلاّ أن نكون كما كان

---

(١) أي باسمها.

(٢) هذه الـ(لا) قالها علي في شورى عمر إذ ردّ فيها على عبد الرحمن بن عوف قوله. «شريعتي».

علي؟ نحيا كما كان علي، ونموت كما مات علي، ونعبد كما عبد علي، ونفكر كما فكر علي، ونجاهد كما جاهد علي، ونعمل كما عمل علي، وننطق كما نطق علي، ونصمت كما صمت علي. فمكّني بقدر مستطاعي ـ أنا عبد علي العاجز الضعيف ـ من أن أفعل شيئاً في روح تذوب في علي وله هذا القوام:

على المنبر هو رب الحديث.

وفي المحراب رب العبادة.

وفي الأرض رب العمل.

وفي المضمار رب الجهاد.

وعند محمّد رب الوفاء.

وفي المجتمع رب الواجبات.

وفي نهج البلاغة رب القلم.

وفي الحياة رب القداسة.

وفي الإسلام رب العلم، وفي الزمان رب الثورة.

وفي الحكومة رب العدل، وفي البيت رب الأبوة والتربية.

وإلى هذا كله فهو في كل مكان وزمان عبد من عباد الله!

وذكرني بأني شيعي يخلص للعقيدة والوحدة والعدالة التي كانت أُسّاً... في حياته في القيادة والمساواة ـ وهما دينه ـ وفي التضحية بالمنافع جميعاً عند أقدام الحقيقة التي كانت نهجه.

إلهي: هؤلاء يؤلّهون علياً، ثم يهبطون به إلى حيث يخشى؛ فيؤيِّد خلاف الشريعة، ويبايع الخائنين. هؤلاء هم المنافقون في ولاية الجور، واللاهجون بأنهم من ولاية علي في ظل نعمه.

إن أولئك لم يتحرروا حتى اليوم من الأسر في أجهزة الدعوة الأموية والعباسية.

ها هم أولاء قد أدركوا ثورة الحرية والاشتراكية؛ ولكنهم ما فتئوا يجهلون علياً والحسين وأبا ذر!

إلهي: ارحمني رحمة لا تدرّ خبزاً ولا صيتاً، وقوّني كيما أقدر على أن أضحي بالخبز والصيت للإيمان. فاغدو في صف الذين يقبضون مال الدنيا لينفقوه على الدين، لا في صف الذين يقبضون مال الدين لينفقوه على الدنيا.

إلهي: أحمدك وأحمدك، لأنني كلّما تقدمت في سبيلك وفي سبيل رسالتك، وكلّما عانيت وقاسيت، أرى الذين عليهم أن يلاطفوني، يضربونني، وأن يماشوني، يحجزونني، وأن يعترفوا لي بالحق، ينكرون عليّ الحق، وأن يصافحوني، يصفعونني، وأن يحملوا على العدو، يحملون عليّ. وأرى الذين يرون سموم الأجنبي تنتشر، يلومونني وييئسونني ويتهمونني، بدلاً من أن يثنوا عليّ ويزيدوا في قوتي، ويكثروا من أملي؛ لكي أقنط ـ وأنا في سبيلي إليك ـ منك، فأغضي عنك، وأزهد فيك.

أحمدك على هذا لكي يكون أملي الوحيد هو أنت، لكي تكون أنت وأنت وحدك مطمعي، فلا

أستعين إلاّ بك، ولا أرجو ثواباً إلاّ منك. فالحساب الذي بيني وبينك ليس فيه شريك ثالث. أجل، لكي أسوّي الأمر الذي بيني وبينك، وبيني وبين نفسي، ولكي أتذوق حلاوة الاخلاص التي إذا تذوقها القلب عاف كل عسل، وكل حلاوة.

إلهي، الإخلاص! الاخلاص!

وأنا أدري يا إلهي، كيف تسوق الحياة للعشق، وكينونة المطلق لأجل الخير والجمال إلى المطلق. أنا أدري كيف يصنع الاخلاص من هذا الموجود الحقير ـ الذي يتكون من الحاجة والضعف والأمل ـ مطلقاً.

وإزاء كل هذه الدعوات، والمخاطر، والمخاوف، والوساوس، والالتماس، والآمال، والخيبة، والأفراح والأتراح الحقيرة التي تحتولنا فتهيمن علينا. وحيال هذا الحشد من الذئاب والثعالب والديدان التي انقضّت على جثثنا ـ أقول إزاء هذا كله ـ نجد الخلاص في أثرة عظيمة ثورية هي معجزة «الذكر»، ووليدة «الكشف» الذي تمخض عنه الإنسان المتواضع تواضعاً إلهياً. وتلك

الثورة هي العصيان الذي اختار الاستسلام المطلق فأدرك الحقيقة المطلقة في شعلة ملتهبة في أعماق الفطرة. فغدا بالموسى البوذية بلا حاجة، وبلا رابطة، متوحداً مجرداً؛ فيبلغ أبعد مما بلغ بوذا. وإذ يأخذ بسوط الـ (لا عندية)، وبسوط الـ(لا حاجة) نريح بهذين السوطين تلك الحيوانات التي شأنها أن تفترس الإنسان؛ فلا يكون لها محل في سبيل كينونته، كينونة إنسانية إلهية.

وإذ ذاك يغدو حراً، رحيضاً، خفيف الحمل، طاهراً، عفيفاً، قديساً، مجرداً، مخلصاً، غنياً ذا مروءة قد صنع نفسه بنفسه، وإذ ذاك أيضاً يصل إلى أعلى قمة من قمم معراج الوحدة. فإذا هذه الـ«أنا» الكاذبة القبيحة، التي كانت قبراً على جنازة تلك الـ«أنا» الشهيدة، الصادقة، الجميلة، الدفينة، المجهولة تتصدع، بل تنهار، بل تتلاشى.

وبـ«الذكر» و«الجهاد الكبير» وبـ«الموت قبل الموت» يبدأ بالهجرة من نفسه. أي مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون؛ فلا يلبث أن يبلغ الاخلاص والمروءة،

والخلوص؛ الخلوص لأجله.

وما أحسن ما خرَّج قبل ألفِ مفسِّرٌ للقرآن ـ متفقه في اللغة الفارسية ـ هذه الكلمة: الاخلاص هو التفرد!.

أجل، تفّردك!

حينئذ يغدو هذا العبد الخاشع الذي جعله تعبده مثلاً لله في الأرض، وهذا الصديق الذي آلت به صداقته من التراب إلى الألوهية ـ إذ متى كانت الصداقة مخلصة وحَّدت بين الصديق والصديق ـ أنضر من الحياة، وأمكن من السعادة وأقوى.

وهذه الحاجة، وهذا الخوف والطمع، والاحقاق والإبطال، والخطر والأمان، والضرر والنفع، والصداقات والعداوات، والثناء والهجاء، والتوفيق والفشل، والأفراح والأتراح كانت ذئاباً ونسوراً مفترسة. ؛فإذا هي اليوم حشرات.. هي ألعوبة الرجل الرخيصة.

والرجل هو «جزيرة» ينطوي عليها في محيط

الوجود؛ ويحيط بهذه الجزيرة من جهاتها الأربع سور الذات وحصنه، فلا الأمواج تتهددها، ولا الساحل في حاجة إليه. فهي كزهرة النيلوفر نبتت في الوحل، ونمت في الماء بلا رواء. لقد أغدقت عليها الشمس بالتفتح والنمو إذ هي تمتص من الشمس!

وهو الذي يستطيع الساعة أن يحيا؛ فزاده «العقيدة»، و«شرابه» «الجهاد».

وهو الذي يستطيع أن يموت شهيداً في مثل جمال حياته واستقامتها وحريتها.

ولأنه (شيعي) لا «صوفياً»، و«مسلم» لا «بوذياً» فإنه لا يلبث في معراج التجرد، بل يسرع إلى التراب والناس ليزاول ما على متنه من حمل الواجب الثقيل، وهل ذلك الحمل الثقيل إلاّ «الأمانة». حتى يُنظر إلى اليتيم الذي زُجِر، والأسير الذي قُهِر، والجائع الذي على الجوع يصطبر، والجماهير الّتي جعلت الظلم يقتدر، والأمة التي سبيلاً إلى الخلاص تنتظر، وإلى

الناس الذين بهم يضحّى، والزمان الذي يبحث عن الأبطال، وما يجري تحت السماء من أحوال. إنه يسترخص التضحية والعذاب والمكابدة والموت! وهذا الموت ليس كموت الحلاج طاهراً ولكن فارغاً في الحين نفسه، وإنما كموت علي يرضى الله إذ ينفع عباده. وذلك هو وحده العمل في الحياة الذي ينفع به الناس ونفسه! لذلك كان الحسين في نهاية ذلك اليوم الأحمر، الذي سالت فيه دماء أصحابه، قد تحلّى وتزين، إذ حلت له الشهادة وهو يشم نجيع قومه. فإذا هو من الشوق أحر، ومن السرور أشدّ وأكثر. فإذا الخصم يسأله مستغرباً مقرعاً: ألعلك يابن أبي طالب قد تأهبت؟ فيجيبه بلهجة الفاتح المنتصر: أجل! وأعدوا الحجلة، فزوج الشهادة الجميل الذي عاهد الموت على الحياة يلج الحجلة.

وأما علي فما ان يحس بحد السيف يمزق جمجمته، حتى يحس بأن كاهله قد تخفف من حمل الأمانة التي أزرى ثقلها بالأرض والسماء والجبال.

فإذا هو من فرط ما ازدحم فيه من شوق يعلنها بشرى.

«فزت ورب الكعبة»

الاخلاص هو:

التوحد في الحياة،

والتوحد في الوجود،

والتوحد في المحبة!

إلهي: لقد وهبت لبني آدم الكرامة، وحمّلتهم الأمانة، وأرسلت الأنبياء لتعليمهم الكتاب، ولإقامة العدالة والعزة لك، ولأنبيائك وللناس المؤمنين.

إننا نؤمن بك وبرسالة أنبيائك، منك نطلب الحرية والبصيرة والعدل والعز، فهب لنا لأننا في حاجة ملحة مؤلمة. نحن فدية الأسر والجهل والذل.

يا إله المستضعفين! لقد مننت على المستضعفين في الأرض وعلى المحرومين الحياة، المسجونين في التاريخ، المعانين ظلم الزمان وقسوته، المقاسين جحيم

الأرض بأن تجعلهم أئمة فتملّكهم العالم، ولقد آن أينهم، فآن لك أن تُسمع وعدك هؤلاء المستضعفين.

يا مظهر الغيرة! إن المستضعفين في الأرض هم اليوم وحدهم الذين يعبدونك! يا رب: أنت الذي أراد جميع الملائكة أن تسجد لآدم، أوَلا ترى الساعةَ بني آدم وقد أرادوا منهم السجود عند أقدام الغيلان.

حررهم من قيود أصنام هذا الزمان التي يعبدونها، والتي نحتناها نحن أنفسنا، وهبهم حرية العبادة، حرية عبادتك.

يا رب: هؤلاء الكافرون بآياتك، والقاتلون غدراً أنبياءك، والغائلون المجاهدين في سبيل العدل والمساواة ما فتئوا مسلَّطين على العالم.

لقد بشّرت بالعذاب؛ فليكن نصيبهم.

يا رب: هب علماءنا «المسؤولية»، وعوامنا العلم، ومؤمنينا النور، ومفكرينا الإيمان، ومتعصبينا الفهم، وفاهمينا التعصب، ونساءنا الشعور، ورجالنا

الشرف، وشيوخنا البصيرة، وشبابنا الأصالة، وأساتذتنا العقيدة، وتلامذتنا العقيدة أيضاً، والغافين منا اليقظة، واليقظين منا الإرادة، ومبلغينا الحقيقة، ومتدينينا الدين، وكتابنا «الالتزام»، وفنانينا الألم، وشعراءنا الشعور، ومؤلفينا الهدف، واليائسين منا الأمل، وضعفاءنا القوة، والمتقوقعين منا الامتداد، والقاعدين منا القيام، والراكدين منا الحركة، وأمواتنا الحياة، وعميانا البصر، والصامتين منا الصراخ، ومسلمينا القرآن، وشيعتنا علياً، وفرقنا التوحد، وحسادنا الشفاء، والمغترين منا الانصاف، والمفحشين منا الأدب، ومجاهدينا الصبر، وأمتنا البصيرة، وهب كل شعبنا الهمة والعزم والتهيؤ للفداء والخلاص والعزة!

يا ربّ الكعبة: لا تجعل هؤلاء الناس المتجهين صوب بيتك في العشي والإبكار ـ ففي قبلته يحيون وفي قبلته يموتون وحول بيت ابراهيمك يطوفون ـ فدية جهالة الشرك، وضحية قيود نمرود!

وأنت يا محمّد! يا نبيّ النهضة والحرية والقدرة! لقد شب في بيتك حريق، وهجم على أرضك من الغرب سيل عرم، فلقد طالما غفت أمتك في فراش أسود ذليل.

فصح بهم:

قم فأنذر،

وأيقظهم!

وأما أنت يا علي، يا حيدرة، يا رجل الله والناس، ورب السيف والمحبة فقد فقدنا جدارتنا بفهمك، إذ أخذوا من رؤوسنا فهمك؛ إلاّ أن أعماق وجداننا، وسويداء قلوبنا ما زالت على رغم الأحداث مشتعلة بحبك.

كيف تتخلّى عن عشاقك في ذلتهم؟ وأنت الذي لم تطق ظلماً أصاب يهودية كانت في ذمة حكومتك؛ فانظر المسلمين في ذمة اليهود، وما يقاسون!

يا ذا الساعد الذي رجحت ضربته على عبادة كلا العالمين: ضربةً أخرى!

وأنتما، يا أخت! ويا أخ! يا من لقنتما الإنسان كيف يكون إنساناً، والحرية والإيمان والرجاء إيماناً ورجاءً، ويا من وهبتما بميتتكما الفذة الحياة حياة!

نعم، أما أنتما فإن عيون هذا الشعب لم تجف دمعاً من ذلك اليوم المفجع، الذي يرتجف الخيال من تصوره، ويتمزق القلب من وجعه.

قرون مضت وشعبنا يبكي حزناً عليكما وحباً بكما.

أوليس لسان الحب هو الدمع وحده؟

إن الأمة تبكي في كل هذه القرون مأساتكما، ولأنها تفنى فيكما تجرعت السياط والمجازر والعذابات؛ فما ازدادت إلاّ حباً رسم اسميكما على شفاهها، وذكركما في خاطرها، وحبكما المتأجج في قلبها.

كل سوط جلدها به الجلاد نقش في ظهرها وفي أضلاعها حنانكما.

يا زينب، يا لسان علي خاطبي أمتك! يا امرأة

تعلمت الرجولة في ركابها الشهامة. إن نساء شعبنا، وهن اللائي نقشن شعلة حبّك في قلوبهن، قد احتجن إليك أكثر من حاجتهن في أي وقت سلف.

أقعدهن أسر الجهل وذلته، وسلخهن أسر الغرب المداجي من أنفسهن ومنك.

هيّجيهن على «الاستحمار[1] القديم والجديد»، وعلى التقاليد البالية المتعفنة، ليهجن في أنفسهن، فيمزّقن نسيج العنكبوت هذا في مثل صيحات أطلقتها على مدينة الجور والظلم، فاهتزت قصور الجور والظلم، وليتعلمن الصمود لهذه العواصف الهوج، وليحطمن هذه «الآلة المخيفة» التي تصنع منهن ألاعيب جديدة من أجل «الاستحمار الجديد» و«المغافلة الجديدة»، وملء «فراغ» الأيام بما تعرضه الرأسمالية في الأسواق فتدغدغ شهوات البرجوازية القذرة، وتمنح «صالوناتهم» التافهة حركة، وتشيع في

---

(١) حمره: قال له: يا حمار. وقد استعمل الكاتب هذه الكلمة بهذه الصيغة: «استحمار» ليزاوج بينها وبين كلمة «استثمار» وهما من الألفاظ العربية الجارية على اللسان الفارسي الحديث.

المرفهين الذين يحيون حياة عابثة سخيفة حرارة.

نريد أن ينعتقن بقيادتك من حرم القيود القديمة ومن هذه الأسواق الجديدة التي بلا حرمة.

يا لسان علي في الفم، ويا رسالة الحسين على الكاهل، ويا أيتها الآتية من كربلاء، الحاملة رسالة الشهداء بين صخب الجلادين والماكرين إلى مسمع التاريخ، يا زينب حدثينا، ولا تخبرينا بما جرى عليكم، وبما رأيت في تلك الصحراء التي غرقت بالدماء، وبما بلغته تلك الجنايات. لا تقولي لنا إن الله قد عرض في شطآن الفرات في ذلك اليوم أعظم ما خلق وأعزّه وأثمنه، مثلما عرض ذلك على ملائكته، لتعلم لماذا كان عليها أن تسجد لآدم. أي زينب! لا تقولي لنا هذا، ولا تصفي ما فعله أعداؤكم وأصدقاؤكم. أجل، يا رسول ثورة الحسين فنحن نعلم بكل هذا.

لقد أدّيت رسالة كربلاء ورسالة الشهداء.

أنت شهيدة صنعتِ من دمك الكلمة، كما كان يتحدث أخوك بقطرات دمه.

ولكن قولي.

يا أخت

قولي: ما علينا أن نفعل.

خذينا بعطفك، لحظة ترين ما نعاني،

وتسمعين ما نبثّ.

يا أيتها الأخت الحنون!

إبكي علينا.

يا رسول الأخ الأمين

الآتية من كربلاء، المبلغة رسالة الشهداء في جميع العصور. يا أيتها التي تفوح ثيابها بعطر بساتين الشهادة.

يابنة عليّ.

يا أُخت.

يا سيدة قافلة المأسورين.

خذينا معك في هذه القافلة كذلك!

وأما أنت يا حسين!

فما عساني أن أقول؟

أخذنا غلس[١] الليل، ورهبة الموج، ودوامة[٢] الحياة.

يا مشكاة الطريق.

ويا سفينة النجاة.

يا دماً يجري من بقعة في تلك الصحراء خالداً فواراً إلى حيث الزمان، وحيث الرمال العطاش إلى الدم، وحيث تفلق[٣] كل بذرة جديرة مطمورة في التراب، وحيث تروي كل شجرة حية فتية.

يا معلم الشهادة الكبير!

ألا فليكن لنا في غلسنا وميض[٤] من ذلك النور.

---

(١) الغلس والجمع أغلاس: ظلمة آخر الليل. (المترجم).

(٢) الدوامة بالضم والجمع دوام: لعبة من خشب يلف الصبي عليها خيطاً ثم ينقضه بسرعة فتدوم أي تدور على الأرض. (المترجم).

(٣) فلق الشيء وفلقه بالتشديد: شقه. (المترجم).

(٤) الوميض: لمع البرق خفيفاً. (المترجم).

وليكن لنا من ذلك الدم قطرات تجري في عروقنا الهامدة.

وليكن لنا لفحة[١] من نيران تلك الرمضاء المشتعلة تدفيء قُرّنا وكآبتنا.

يا من اخترت «الحياة السوداء»، لتنقذ عشاقك من «الموت الأسود»، فتهب بكل قطرة من دمك للأمة الحياة، وللتاريخ الحركة، وللكيان الميت المكتئب حرارة وحياة وحباً وأملاً!

إن إيماننا، وشعبنا، ومستقبلنا، وهيكل زماننا في افتقار إليك، وإلى دمك.

والسلام...

(١) اللفحة: حر النار المحرق. (المترجم).

الفهرس